المقالة الثانية

حياة أبى العلاء

قبيلته

ينتهى نسبُ أبى العلاء كما سترى إلى قضاعةَ . وقضاعةُ قبيلةٌ متشعبةٌ ذاتُ أطراف وغصون ، كان لها شأنٌ كبيرٌ فى الجاهليةِ والإسلام ، وقد بعُد العهدُ باختلافِ العربِ أنفسِهم فى نسَبِها ، فبعضهم يصلها بمعدّ بنِ عدنان ، وبعضُهم يرتقى بها إلى يعربَ بن قحطان ، بل إن بعضَ شعرائها قد اجتهدَ فى أن يتصلَ بعدنان إيثارًا لقرب المكان من قريش بيت النبوة والخلافةِ فقال جميل :

أنا جميلٌ فى السنامِ من معــدّ فى الذروةِ الحصداء والركنِ الأشدّ

ولكن جمهورَ العربِ والمحققينَ من حفاظِ الأنسابِ يروْن أن بيتَ قضاعةَ فى معدّ أوهن من بيتِ العنكبوتِ ، وأن صلتَها الحقيقية إنما هى لقحطان ، فقضاعة يمانيةٌ لا عدنانيةٌ . هذا الخلافُ القديمُ مع غيره من الحوادثِ ، اشترَكَ قبل التاريخ فى تكوين طائفة من الأساطير عن رحلة قضاعةَ وهجرتها من تهامة موطن بنى إسماعيلَ إلى البحرين ، ومنها إلى الحيرةِ وبلاد الشام . وظننا أن انتسابَ قضاعةَ إلى تهامة ليس بأقلَّ وهنًا من انتسابِها إلى عدنانَ ؛ فإن حرصها على الاتصالِ ببنى إسماعيلَ ألجأها إلى أن تزعمَ تهامةَ أول أوطانها ، والأشبه أن أولَ أوطانِها إنما هى بلادُ اليمن ، وأن سيلَ العرِم هو الذى أزعجَها عن تلك البلادِ ففرَّقها أيدى سبَا كغيرها من بنى قحطان . على أن التحقيق فى مثلِ هذا الموضوعِ أمرٌ لا سبيلٌ إليه ؛ لأن هذه الحوادثَ كما قدّمنا سبقَت التاريخَ ، ولئن كان علمُ النسبِ يشتملُ على كثير من الحقائقِ النافعةِ ، إن حظهُ من الخلط عظيم ، ولا سيما إذا بعُد العهْد به وتعمقَ فى الزمان القديم . ذلك شىءٌ لا نقصرُه على النسب العربىِّ ، وإنما نمد ظلَّه على غيره من الأنسابِ ، فإن العنايةَ بحفظ الآباء

والأجداد ، خصلةٌ من خصال أهل البادية ، وأمم التاريخ القديم[١] ، تشتدُّ كلما أغرقوا فى الجهل والأميَّة ، وتضعفُ كلما تقدَّموا فى الحضارة والعلم . وخليقٌ بالقضايا التى تقرَّرُ فى ظلمة الجهل من وراء حجاب ، وتدون قبل أن يظهرَ التاريخُ عليها ، أن تعدَّ من الأساطير التى تنقص وتزيدُ وتتأثر بالزمان والإقليم ، لا من الحقِّ الثابتِ الذى لا شك فيه .

على هذه القاعدة نفهمُ أنسابَ طائفة من قبائل البربر والأكراد والجراكسة إلى العرب . نعم ربما صحَّت بعضُ الأنساب فى الإسلام ، ولا سيما أنساب الهاشمية ولكن لا ينبغى أن نغفل عن أولئك الأدعياء الكثيرين الذين اندسُّوا فى ديوان بنى هاشم على اختلاف العصور . ولو أنك نظرتَ فى حياة الرجل الفذِّ الذى حفظ أنسابَ العرب ، ووصل أسبابها بالمحدَثين أيام بنى العباس ، وهو ابن الكلبيِّ ، صاحبُ الجمهرة التى اختصرها ياقوت ، وأخذها ابن حزم ، لرأيت أكثر الرواة يتهم صدقَه وأمانته ، فيما كان يرْوى من الأخبار . ولعلَّ كثيرًا من الناس قرءُوا تلك المداعبةَ التى كانت بين أبى نواس وبينه ، وذلك حيث يقول أبو نواس :

أبا منذر ما بالُ أنسابِ مذحج ... مغلقة دونى وأنت صديق
فإن تعْزُنى يأتك ثنائى ومدحتى ... وإن تأبَ لا يسدَد علىَّ طريق

والناظر فى مُداعبات الشعراء ، فى أوائل القرن الثانى يرى مقدارَ شكِّ المحدَثين فيما انتهى إليه علم النسب ، وحسبُك أن تقرأ قولَ بشار :

ارفقْ بنسبة عمرو حين تنسبهُ ... فإنه عربىٌّ من قوارير
ما زال فى كير حداد يردده ... حتى بدا عربيًّا مظلم النور

وكذلك قول الآخر :

الحمد لله هذا أعجب العجبِ ... الهيثم بن عدىّ صار فى العربِ

---

(١) كان الرومان أشد من العرب محافظة على أنسابهم وبقى ذلك إلى أيام الإمبراطورية ، ثم لم تسلم هذه الأنساب من نقد المؤرخين القدماء والمحدثين .

والقول فى أمر الحطيئة وتنقله بنسبه فى القبائل، وفى العبيديين واتهام نسبهم إلى بنى هاشم شائع مشهور ، بين الأدباء والمؤرخين .

* * *

من بطون قضاعة تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلبَ بن حلوانَ بن عمران ابن إلحاف بن قضاعة . وتيمُ الله هذا مجتمعُ طائفة من الأحلاف القضاعيين عُرفوا فى الجاهلية والإسلام إلى ما بعد أبى العلاء باسم تنوخ. وإنما جاءهم هذا الاسم — فيما زعمَ رواةُ الأساطير — من أنهم حين جَلَوْا عن تهامةَ إلى البحرين لحرب كانت بينهم وبين بنى نزار سألوا كاهنتهم الزرقاء بنت زهير ، وكأن لفظَ الزرقاء لقبٌ يلزمُ كل كاهنة ، فليس مَنْ يجهل زرقاءَ اليمامة ، فقالوا : ماتقولين يا زرقاءُ ؟ قالت : سف وإهان وتمرٌ وألبانٌ خيرٌ من الهوان .قالوا: فما ترينَ ؟ قالت : مقام وتنوخ ما ولد مولودٌ ، واتفقت فروخ إلى أن يجىء غرابٌ أبقعُ أصمعُ أنزعُ عليه خلخالا ذهب فطارَ فألهبَ ونعقَ فنعبَ ، يقع على النخلة السحوق بين الدور والطريق ، فسيروا على وتيرة ثم الحيرةَ الحيرةَ . قال الرواةُ : فبينا القومُ فى مجلسهم ذات يوم أقبل هذا الغراب كما وصفتْه الزرقاءُ فارتحلوا إلى الحيرة فبنَوْا بها المنازل واتخذوها دارًا . ثم عَدَت عليهم عواد وأصابتهم صروفٌ نسيتها الأساطير وجهلها التاريخ . فتفرق حيهم واستقرَّت طائفةٌ منهم فى الشَّام . وكانت لهم تلك القريةُ التى وصفناها فى المقالة الأولى . وكان منهم هذا الرجل الخالد الذى وضَعنا لحياته هذا الكتاب .

هذه الأساطيرُ مصدرُ عناء للذين يهمهم تحقيق ما قبل التاريخ ، وهى أيضًا مصدرُ خلاف بين اللغويين أصاب شرُّه الجوهرىَّ فشنَّع عليه صاحب القاموس من حيث لم يحتَسِبْ ولم يقدر . قال الجوهرىُّ إن تنوخَ إنما اشتُقَّ من ناخ فهو إذًا مضارعٌ بدئ بالتاء ، ثم غلَبت عليه الاسمية كما فى تماضرَ اسم الخنساء . ولكنَّ صاحب القاموس أبَى ذلك وعدَّه خطأ ، وقال إنما هو من تَنَخ بالمكان : أقام به . ووافقهُ على ذلك صاحب اللسان .

أما نحن فما نعرف وجهاً يرجّحُ رأيَ صاحب القاموس ويُبيح له أن ينصّ على غلطِ الجوهريّ . إنما هو لفظٌ جاءت بهِ الأساطير مبهماً مجهول الاشتقاق . فذهب الجوهري في تأويله مذهباً ، وذهب غيره من اللغويين مذهباً آخر ، وكلا المذهبين جائزُ الصحة والبطلانِ ، وأجملُ موقف يقفه الباحث بإزاء مثل هذا اللفظ إنما هو موقف الشكّ بإزاء شيء لم يوضحْه التاريخ الصحيحُ .

لاشكّ في أن لهذه الأساطيرِ ظلاً من الحقّ ، جسّمهُ الخيال ، وأحاطهُ قدمُ العهد بطائفة من الأوهام . ولكن استخلاص هذا الظلّ الصحيح من هذه الأوهام شيء لا سبيل إليه . فلندعْ مواضع الشكّ ولننتقل إلى موضع اليقين من البحْث عن أسرة أبي العلاء ورهطه الأدنَين . ولكن لابدّ لنا قبل أن ندعَ هذه الأوهامَ من أن نقرر قضيةً ذات خطر لأنها تؤثر في حياة الناس أثراً غير قليل .

* * *

هذه الأوهامُ والخيالاتُ الكثيرة ، التي تتوارثُها أسرةٌ من الأسر أو شعبٌ من الشعوب ، تترك في نفس الأجيال الناشئة شيئاً من الأثر ، فإذا كانت تمثل العزّ والمجد ونباهةَ الشأن ورفعة القدر ، تركت في نفس الأجيال الناشئة ظلا من الإباء والحميّةِ ومن الشمم والصيد . وإذا كانت تمثل الذلةَ والمسكنة والخمول والضعف تركت في نفس هذه الأجيال ظلا من الخنوع والخشوع . هذا الظلُّ الذي يتركه التراث القديم يعملُ غير قليل في تكوين الأشخاص النابهين مشتركاً مع غيره من المؤثرات التي يتكشّفُ عنها الزمان . فلنلاحظْ هذه القضية ، فإن أثرها سيظهر جليّاً في حياة أبي العلاء .

أسرته

الفضلُ كلُّ الفضل لياقوت فيما نعرفُ من تاريخ الأسرة التي أنجبَتْ هذا الحكيم ؛ فإنه قد عدّ لنا من أفرادها النابهين طائفةً غير قليلة في كتابه المعروف بمعجم الأدباء . وهذا البيان الواضح الذي جاء به ياقوت لأسرة أبي العلاء يدلُّ

على أنها قد كانت أسرة لها فى المجد العلمى طارفٌ وتليدٌ ؛ فإن جدَّه سليمان بن داود ولِى قضاءَ المعرة وحمصَ ، وعُرف بالفضل وكرم النفس ، ومات سنة تسعين ومائتين ، فولى بعده ابنُه أبو بكر محمدُ بن سليمان عم أبى العلاء ، وقد قصده الشعراء بالمدح ، فمدحه الصنوْبَرِىُّ بأبيات منها :

بأبى يا ابنَ سُليمـــا ن لقد سدْتَ تنُوخا
وهم الســـادةُ شـــبَّا نًا لعمرى وشيُوخا

فلما مات ولى القضاء بعدَه أخوه عبد الله بن سليمان والد أبى العلاء، فمات سنة سبع وسبعين وثلثمائة ، وله من الولد غيرُ أبى العلاء أبو المجد محمد بن عبد الله ، وأبو الهيثم عبد الواحد بن عبد الله وكانا شاعرَين . ثم كان من عقب عبد الله طائفةٌ تولوا القضاء ذكرَهم ياقوت ولم نشأ أن نُطيل بذكرهم . وأكثرُ أسرة أبى العلاء قد قرضوا الشعر فأجادوا قرضَه ، فقد كان أبوه وأخواه شعراءَ ، روى لهم ياقوت من الشعر ما يدلُّ على أن لهم من الإجادة حظًّا موفورًا . وكذلك من جاء بعدهم من أبنائهم الذين بقِىَ لهم مجدُهم المؤثَّلُ موفورًا عليهم إلى أواخر القرن السادس . ومنَ الواضح أن طريف ما لهذه الأسرةِ من المجد إذا انضمَّ إلى تَليدِها قوَّى فى نفس الذكىِّ النابغة من أبنائها أخلاقًا ستظهر فى أبى العلاء .

أسرته لأمه

أصهرَ عبد الله بن سليمان إلى أسرة بحلبَ تعرَف فى رسائل أبى العلاء بآل سبيكة . ولم يعرض لها ياقوت ولا يدلنا التاريخ من أمرها على شىء ،ولكنَّ شعرَ أبى العلاء ونثرَه يمثلان لنا من هذه الأسرة ثلاث خصال : الأولى كثرة الرَّحْلة وجوب الآفاق ، وذلك يظهرُ فى رسائله وفى قصيدة من سقْطِ الزنْدِ بعث بها إلى أحد أخواله وقد عاد من سفره إلى المغرب ومطلعها :

تفدّيكَ النفوسُ ولا تفـــادى فأدن القربَ أو أطل البعادا

ومنها :

إذا سارتك شهب الليل قالت أعانَ الله أبعدَنا مُرادا

ومنها :

كأن بنى سبيكةَ فوق طير يجوبون الغوائرَ والنِّجادا
أبالإسكندر الملك اقتديتم فما تضعون فى بلدٍ وِسادا

وسنعرض لهذه القصيدة عند الكلام على شعره .

الثانية : كرمُ النفس وسخاؤُها بالمال وحرصُها على صلةِ الرحم ، ويمثلُ ذلك رثاءُ أبى العلاء لأمه وشكره لخاله غير مرة فى الرسائل على معونته إياه ، بل إن سفره إلى بغداد ، ومقامهُ بها ورجوعَه منها ، لم يكن إلا من نوافل خاله هذا .

الثالثة : حبُّ العلم والنبوغ فيه . ويمثل ذلك تلك المكاتبة التى اتصلَتْ بين أبى العلاء بالمعرة وبين خاله أبى طاهر حين كان ببغداد [1] فى شأن كتاب السِّيرافى الذى شرحَ به كتابَ سيبويه . وكذلك لفظ الرسائلِ التى كتبَها إلى أخواله وأسلوبها يدلان على أن يرى لهم التفوق وإتقان العلم . وخصلةٌ أخرى تظهر من مجموع حال هذه الأسرة وهى الثروةُ واليسارُ ، ولا بدَّ لنا من أن نلاحظَ أن رسائل أبى العلاء ونزومياته وديوانهُ المعروفَ بسقط الزند تخلو كلها من ذكر أسرته لأبيه ، إلا ما كان من رثاء والده . بينما تستغرقُ أسرتهُ لأمه من ديوانه ورسائله مقدارًا غير يسير . فلا شكَّ فى أن أيادى أمه وأخواله كانت متظاهرةً عليه ، وأن معونة أسرتهِ لأبيه كانت منقطعةً عنه لفقر أو جفاء .

مولده

فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلثمائة للهجرة ، وسنة ثلاث وسبعين وتسعمائة للمسيح ، قبل مغيب الشمس بقليل

(١) انظر أبا العلاء وما إليه للميمنى ص ٣٦ .

وُلد فى معرَّة النعمان طفلٌ استقبل الوجود لا يحسُّه ولا يشعرُ به ، ولا يعرف ما أضمرتْ له الأيامُ من خير أو شرّ ، ومن سعادة أو شقاء ، ومن رفعةِ قدر أو خمول ذكر .

استقبل الوجود فما أحسَّ مقدمه إلى هذه الحياة إلا أهلُه الأقربون. وما نحسب أنهم احتفلوا بقدومهِ عليهم أكثر مما يحتفلون بقدوم طفل وُلد لرجل من أوساط الناس .

استقبل الوجود وهو يجهلُه كل الجهل ، وتلقتْه هذه الدنيا وإنها لتجهلُ مزاجه وتركيبَ نفسه ، وما سيئولُ إليه أمرُه من ذمّ لها ورغبة عنها ، ونعى على الكلفين بها الجشعين إليها . ولكنها مع ذلك تعدُّ له ألوانًا من اللذات والآلام ليس له من لقائها بدٌّ ولا عن ابتلائها مندوحةٌ . كلاَ الصاحبين من الحىِّ والحياة يلقى صاحبه جاهلا له مُكْرَهًا على لقائه . ولو أنَ أحدهما خيِّرَ فى هذا اللقاء لما رضيَه ولا مال إليه . لو أحسَّ الجنين تلك الصروفَ والأهوال التى تتأهبُ للقائهِ لآثر أن يختنقَ فى رحم أمه . ولو أحست الحياةُ تلك الخلال التى سيلقاها بها هذا الجنين من صبر على آلامها أو تبرُّمٍ بها ومن شرهٍ إلى لذاتها أو زُهد فيها ، لودَّت لو تنصرفُ عنه .

كذلك كان يتحدثُ هذا الطفل بعد أن مرَّ على مولده أربعون عامًا .

لقد استقبلَ الحياة وما كان استقباله إياها إلا نداءً له بأن يحتملَها كما هى ، وعهدًا عليه أن يتقضاها من غير أن يطلب منها مفرًّا . وكذلك فعل ؛ فسيدلُّنا تاريخُه على أنه احتمل آلام الحياة غير ضجر ، وبلا الحق من لذاتها غير بطر ، وأوفَى بهذا العهدِ الذى أكره عليه فأحسَنَ الوفاء . دخل الحياةُ مُجبَرًا ، وخرج منها مجبرًا ، وأقام فيها مجبرًا ، ولكن هذه الحياة الجبريَّة كانت مصدرَ هذه الآثار التى نحن مبينوها منذ الآن .

اسمه ولقبه وكنيته

هذا الطفلُ هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهّر بن زياد بن ربيعة بن الحرثِ بن ربيعة بن أنور ابن أسحم بن أرقمَ بن النعمان بن عدىّ ، وهو المعروف بساطع الجمال ، رهن المحبسين ، ينتهى نسبُه الأعلى إلى تيم الله ثم إلى قضاعة ثم إلى قحطان إن صحَّ الاعتماد على ما تحدَّث به النسّابون .

سمَّاه أبواه بهذا الاسم ولكنه كرهَهُ حينَ بلا نفسَه وعرف أخلاقه ، فرأى أن من الكذب اشتقاقَ اسمه من الحمد ، وإنما ينبغى أن يشتَقَّ من الذَّم .

وكذلك كنياه بهذه الكنْيَةِ فيما نرجّحُ ، فقد كان من عادة الآباء فى ذلك العصر أن يكنوا أبناءَهم وقتَ تسميتهم ، والاستدلال على ذلك لا يكلفنا إلا الإشارة إلى ما امتلأتْ به كتبُ الأدب من نوادر التسمية والتكنية . وأخبارُ الصاحب بن عباد فى ذلك شائعةٌ متظاهرةٌ ، ولكنَّ أبا العلاء كرهَ هذه الكنية أيضًا ، ورأى أن من الظلم أن يضاف إلى التصعيد والعلوِّ ، وإنما العدلُ أن يضاف إلى السقوط والهبوط :

دُعيتُ أبا العلاء وذاك مينٌ ولكن الصحيح أبا النزولِ

فأما اللفظُ الذى اختارهُ لنفسه وكان يُحِبُّ أن يدعى به فهو « رهنُ المحبسين » .

قد سمَّى نفسه بهذا الاسم بعد رجوعه من بغداد واعتزاله الناسَ ، وإنما أراد بالمحبسين منزله الذى احتجبَ فيه ، وذهابَ بصره الذى منعهُ من مشاهدة الأشياء المبصرة ، على أنهُ قد ذكر لنفسه فى اللزوميّات سجونًا ثلاثة : أحدُها منزله ، والآخرُ ذهابُ بصره ، والثالث : جسمُهُ المادى الذى احتبستْ فيه نفسُه أيام الحياة ، وذلك حيثُ يقول :

أرانى فى الثلاثةِ من سجونى فلا تسألْ عن الخبر النَّبيث
لفقدى ناظرى ولزومِ بيتى وكونِ النفسِ فى الجسم الخبيث

غير أنه قد أعرضَ عن السجن الثالث فلم يسمِّ نفسَه إلا رهن المحبسين .وعلةُ ذلك فيما نعتقدُ أمران : أحدهما أن هذا السجنَ مشتركٌ بينهُ وبين عامَّة الناس . الثانى[1] : أن مذهبه فى النفسِ لم يكن ثابتًا ، بل كان يرَى مرَّة رأىَ أفلاطونَ ، فيزعمُ أن النفسَ جوهرٌ مجردٌ مستقلٌ قد أهبط إلى هذا الجسم ليبتلَى ويمتحَن ، ويرى تارةً أخرى رأىَ المادّيين ، فيزعُم أن ليست النفسُ إلاَّ حرارةً منبثةً فى الجسم يمضى بها الموتُ ، فآثر أن يسمِّى نفسَه بشىء لا شكَّ فيه ، يكونُ مع ثبوتهِ أشدَّ به اختصاصًا ، وأكثرَ به اتصالاً ، وربما صحَّ له ذلك فى العزلةِ ، فإنَّا لا نعرفُ بين المسلمينَ فى عصرهِ ولا قبله من سار سيرتهُ ، فلزم البيتَ وآثرَ الوحْدة ، وحرص على اعتزالِ النَّاسِ . فأمَّا العَمى فلم يقصرْ عليه ولم يختص به ، وإنما هو آفةٌ شائعةٌ بين الناسِ فى جميع الأعصار والأقطارِ ، تصيبُ منهم النابهَ والخاملَ ، وتصيبُ منهم الغبيَّ والفيلسوفَ ، ولكنَّ أبا العلاء كان يرَى لذهابِ بصره خطرًا ليس له إذا عرض لرجل آخرَ . وليس لذلك منشأ إلاَّ رأيه فى نفسِه بالقياسِ إلى غيرِه من الناس .

ذهاب بصره

فى سنة سبع وستين وثلثمائة وهى السنةُ الرابعةُ من حياة أبى العلاء، رمته الأيامُ بأوّل ما خبأتْ له من كبار المصائبِ وعظام الأحداث .

رمتْه بالجدَرِىِّ فما زال يضنيه ويعنيه ويُلحُّ عليه حتى ذهب بيسرَى عينَيْهِ جملةً ، وغشى يمناهُما بالبياضِ ، ثم لم يكن إلاَّ قليلٌ حتى فقد ما بقَى فيها من قوةِ الإبصار .

---

(١) تحقيق هذا فى المقالة الخامسة .

دهمتْه هذه الداهمة وهو صبيٌّ لايعقلُ ، ولم تبلغْ ذاكرته أشدَّها ، فلم يستطع حين شبَّ أن يتذكر ما رأى من الألوان . ولم يبق فى ذاكرته منها إلاَّ الحمرة ، لأنه ألبسَ فى الجدرىِّ ثوبًا معصفرًا ، فكان اشتدادُ المرض عليه وتأثيره فيه من الأسباب التى نقشَتْ هذه المصيبة فى نفسه نقشًا لا يزول ، فأذكرتْه إياها ، وأذهلتْه عما سبقها . أثرُ هذه المصيبة من الحزنِ عظيمٌ يلزمُ صاحبه فى جميع أطوار حياته لا يفارقهُ ولا يعدوه . ذلك لأنه يذكر بصره كلما عرضَتْ له حاجةٌ ، وكلما ناله من الناس خيرٌ أو شرٌّ ، بل كلما لقيَهم فى مجمع عامٍّ أو خاصٍّ . فما يزال الحزن يؤلمه ويخزه إلاَّ أن يفقد الشعورَ وتصيبهُ البلادةُ المطلقة . وكلما قوىَ فيه الحياء والحرص على مجاراة الناس فى المحافظة على آدابهم وأوضاعهم العامَّة اشتد أثر هذا الحزن فى نفسه ؛ لأنه لم يوفَّق إذا لقىَ المبصرين أن يكون مثلهم مهما كان فطنًا ذكيًّا . قد يهزءُون منه ويسخرون به وإن كان حظهم من الأدب قليلاً . ولكنهم يتغفلونه ويقلون الاحتفال به فى أنفسهم مهما عظُم نصيبهم من الأدب وحُسْن الأخلاق .

لقد كانت لبشارٍ قينةٌ تحسنُ الغناءَ ، فأخذتْ طائفةٌ من الأدباءِ تسمر عنده لسماعِ هذه القينة ، وأخذوا فى أثناء الغناء يغمزونها ويكثرون معها المداعبة وهو لا يدرى حتى قال لها بعض الشعراء أبياتًا أولها :

اتقِ الله أنت شاعرُ قيسٍ لا تكن وصمة على الشعراءِ

والمكفوف إذا جالس المبصرين أعزل ، وإن بزهم بأدبه وعلمه وفاقهم فى ذكائه وفطنته ؛ فقد يتندرون عليه بإشاراتِ الأيدى ، وغمزِ الألحاظِ ، وهزِّ الرءوس وهو عن كل ذلك غافلٌ محجوبٌ . فإن نمَّت عليهم بذلك حركة ظاهرةٌ أو صوتٌ مسموعٌ فحجتُه عليهم منقطعةٌ ، وحجتهم عليه ناهضةٌ . وليس له من ذلك إلا ألمٌ يكتمه وحزنٌ يخفيه ، ثم إن اشتدَّ ذكاؤه ، وانفسح رجاؤه ، كثُرَت حاجته إليهم ، وكثُرَتْ نعمهم عليه ، فهو عاجز عن تحصيل قوته إلا بمعونتهم ، وهو عاجز عن شفاء نفسه من حبِّ العلمِ والمطالعة إلا بتفضُّلهم . وهو عاجز عن الكتابةِ والتحرير إلا إذا أعانوه وتطولوا عليه . وللمنِّ المتظاهرة والآلاء المتواترة فى نفس العاجز الفطن أثرٌ هو الشكر يشوبه الحزنُ . والثناء يمازجهُ

الأسَى ، والحرمانُ أخفُّ عليه من منةٍ يعقبها مَنّ ، ونافلة يشوبها استطالة . ولشعور الإنسان بعجزه وقعٌ ليس احتماله ميسوراً ، ولا الصبر عليه إلا متكلفاً ، وليس يلقى المكفوفُ من رأفة الناس به ، ورحمتهم له وعطفهم عليه ، إلا ما يذكى الألم فى صدره ، ويضاعفُ الحزن فى قلبه ، ثم هو لا يلقى من قسوتهم وشدّتهم ولا استهانتهم وازدرائهم إلا ما يُشعره الذلّ والضعة ، وينبهه إلى العجز والضعف . ومكان المكفوف فى نفس زوجه وبنيه دون مكان المبصر . فإجلالهم إياه محدود ، وطاعتهم إياه مقصورةٌ على ما يتنبهُ إليه ، ثم هو بعد ذلك كله قد حُرم التمتع بلذة يكبرها الناسُ ، وجهله إياها يضاعف خطرها فى نفسه ، فإن تعاطَى صناعة الشعر أو الوصف فإن هذا الحرمان قد استتبع ضعف خياله ، وحال بينه وبين مجاراة الشعراء والواصفين فيما يتنافسون فيه ، إلا أن يكون مقلداً أو محتذياً ، ثم هو يسمعُ الناس يتحدثون عن بهجة الربيع وجمال الرُّبَى ، وعن اتساق الأزهار ، والتفاف الأشجار ، وعن اكتساء الأنهار الجارية ، والبحار الطامية ، ثياباً فضيةً أو عسجدية فى الصباح والأصيل ، وعن أولئك الحسان الفاتنات توردت خدودُهُنّ ولمعت ثغورُهن اللؤلؤية بين شفاههنّ اللعس ، والتأمت من وجوههنّ وشعورهنّ نضرةُ النهار وفحمة الليل ، وعن السماء وأفلاكها ، والنجوم وحركاتها ، وعن السحاب المركوم يخفقُ فيه البرقُ ، وعن حبّات البَرَد تتساقط ، وقطرات المطر تنثرُ ، وعن ضوء القمر هلالاً وبدراً ، وعن الشفق أول الليل وآخره .

يسمعُ أحاديثهم عن هذا كله وما أبدعوا فيه من تشبيه لا يعقله ولا يفقه كنهه ، فضلاً عن أن يجاريهم فيه أو يسبقهم إليه ، ثم هو بعد هذا كلّه قاعدٌ إن نفر الناس لقتال أو حرب ، قد يئس وطنهُ من نصره ، وقنطَ من حفاظه ، فلم ينطْ به أملاً ، ولم يعقد به رجاءً ، كَلٌّ على الناس فى كل شىء ، تكلة فى حياته المادية والمعنوية ، فاليأس أخلقُ به من الرَّجاء ، والموت خيرٌ له من الحياة إلا أن تكون له نافلةٌ من فضيلة الصبر وشدّة الأيد .

فإذا [1] أضيف إلى هذه الآلام فساد الأخلاق ، وانحطاطُ النفوس ، وازدراءُ

---

(١) يلاحظ أن هذا الأعمى قد أصاب أبا العلاء فى بغداد من أحد المعلمين كما بينا فى هذه المقالة .

المنكوبين وأصحاب الآفات حتى من الخاصّةِ وأهل العلم ، ثم اشتداد الفقر ونضوبُ موارد العيش ، أنتجتْ هذه المصيبة من الآثار ما سنراه فى حياة أبى العلاء .

تربيته وتعليمه

لو كُنا نؤرخ مبصرًا لاضطررنا إلى أن نصفَ ما كان يقعُ عليه بصرُه فى أيام الصّبا ، فإن لذلك من الأثر فى تكوين الناشئ وترتيب حياته العقلية والخلقيّة ما فرغ من إثباته علماءُ التربيةِ والباحثون عن علم النفس ، ولكنّا نؤرخ مكفوفًا لم تبلُ عيناه فى تربيته وتأديبه شيئًا من البلاءِ ، وإنما الفضلُ كلُّ الفضل فى ذلك لسمْعه الذى كان ينقلُ إلى نفسه الأصوات المختلفةَ وما تدلُّ عليه .

نعم إن اللمس والشمَّ والذوقَ تنقلُ إلى النفس من صُوَرِ المادّة شيئًا غيرَ قليل ، ولكنْ من الغلوِّ أن نعنى بالبحث عما كان يلمس أبو العلاء أو يشمُّ أو يذوق من الأجسامِ ، فليس إلى ذلك من سبيل ؛ لأن التاريخ لم يوكل به من الرُّقباء من يستقصون حركاته فينقلونها إلينا ، على أن ذهابَ بصر أبى العلاء قد قوّى فى نفسه خلقَ الحياء ، فما نظنُّ أنه كان يحرصُ على أن يتقرى الأشياء المبصرة باللمس ، فإن ذلك يعرضُه لألوان من ازدراء أترابه .

ما زلنا نرى أن ذهابَ بصر الطفل فى الشرق يحدد حياته فى أكثرِ الأحيان ، فيرسمُ له طريقًا لا يعدوها وهى طريقُ الدرس وتحصيل العلم . ومن آثار ذلك أنك لا تكاد ترى الآن رجلاً فقَدَ بصره طفلاً إلاَّ وهو دارسٌ للعلم أو متكسبٌ بتلاوة القرآن ؛ ذلك لأن ذهابَ بصره قد حال بينه وبين التماس العيشِ من طريق التجارة أو الصّناعة أو غيرهما من مذاهب الحياة التى تحتاج إلى الإبصارِ . على أن نصيبه من العلم محدود أيضًا فهو لا يستطيعُ أن يجتهد فى تحصيل العلوم التجريبيّة التى تحتاج إلى البصر كالطبِّ والتشريح والفلك والعلوم الرياضيةِ ، فإن

حصلَ على شيء من ذلك فإنما هو عرضٌ قد ألمَّ به من غير أن يتقنه أو ينبغَ فيه ، إنما يستطيعُ أن يدرس العلوم العقليَّةَ واللسانية والدينية وأن يكون راويًا للأدب أو للتاريخ أو نحوهما من هذه الفنون .

وقد كانت عادةُ أهل الشام والعراق والبلاد التى غلبتْ فيها اللغة العربيةُ لعهد أبى العلاء أن يبدأ الناشئون فيها بدرس علوم اللسان والدّين ، حتى إذا بلغوا من ذلك ما أرادوا سما من شاء منهم إل درس ما أحبَّ من العلوم العقليَّةِ والفلسفيةِ ، وقد قدَّمنا أن أسرة أبى العلاء قد كانت أسرة علم وشعر وقضاء . لذلك بدأ أبو العلاء درسَه اللغوىَّ فى سنٍّ لم يعيِّنها التاريخ على أبيهِ . ونأسفُ أشدَّ الأسف لأن مؤرّخى أبى العلاء لم يعيِّنوا لنا الكتب التى بدأ بدرسها فى النحو واللغة والآداب . فلو أنهم فعلوا ذلك لكان من اليسير علينا ومن النافع لنا أن نلتَمِس هذه الكتب فنصفها ، وندرسَ ما عسى أن تحدث فى ملكاتهِ من التأثير . ومهما يكنْ من غموض الدراسةِ الأولى لأبى العلاءِ فلا شكَّ فى أنها قد كانت صالحةً نافعةً يمدها طبعٌ جيدٌ ، وقلبٌ ذكىٌّ ، واستعداد للعلم موروثٌ ، ويزيد نفعها أن أستاذَه هو أبوه المحبُّ له الحدِبُ عليه . لذلك اتَّفق مؤرخوه على أنه قد بدأ يقرضُ الشعرَ ولما يعدُ إحدى عشرة سنة . وكذلك ارتحل إلى حلبَ ليسمع اللغة والآداب من علمائها الذين شهدوا ابن خالويه وأخذوا عنهُ ، وفيهم محمد بن عبدالله ابن سعد . وليس من المعقول أن يترك الدرس على أبيهِ إلا إذا استنفد ما عنده وطلب المزيد عليه .

ولقد كانت حلبُ فى ذلك العصر إحدى الحواضر الكبرى للمسلمين ، تزدهى بمَنْ فيها من كبار العلماء والأدباء وفحول النظم والنثر الذين دعاهم إليها سيف الدولة فى أيامه الغرِّ ؛ فقد تحدَّث الرواة أنه لم يجتمعْ بباب أحد من الملوك والخلفاء بعد الرشيد مثلُ من اجتمعَ بباب سيف الدولة من العلماء والأدباء .

ليست تبرأ هذه الروايةُ من الإسراف ، ولكنها تدلُّ على أن حلبَ قد كان لها فى عصر ذلك الملك منزلةٌ أدبية سامية ، وليس ينبغى أن يُعترض على ذلك بأن سيف الدولة قد مات ، وانقضى عصرُه قبل أبى العلاء ، فإن الحياة الأدبية فى

بلد من البلاد لا تقدَّر بآجال الرجال الذين أذكوا نارَها بحيث تذهبُ بذهابهم . وإنما للحياة الأدبية أنظمةٌ وقوانين عليها تقومُ . فسيفُ الدولة قد بدأ النهضةَ الأدبية بحلبَ وقوَّاها ، ولكنها لم تذهب بموته ، بل بقيت بعده تختلف عليها أطوار الضعف والقوة إلى أواخر القرن الخامس فى أيام نصر بن محمود شبل الدولةِ ابن صالح بن مرداس .

فهذه الحياة الأدبية فى حلبَ إذا صادَفت ناشئًا ذكيَّ القلب ، صادقِ الفِطْنة ، جيد الحفظِ ، أثمرَت فى نفسِه ثمرًا لذيذ الجنى ، كالذى أثمرته فى نفس أبى العلاء .

قال المؤرخون : وقد أخذ أبو العلاء شيئًا من السُّنَّةِ عن يحيى بن مسْعر[1] ، ولا شكَّ فى أن درسَ أبى العلاء للسنة لم يكن جيدًا ولا متقنًا ؛ إذ لم يخرج منه مُحدّثًا كما أخرج درس اللغة والأدبِ منه لغويًّا أديبًا وشاعرًا كاتبًا .

لا يعرف التاريخ أساتذةً لأبى العلاء فى فنٍّ من فنون العلم غير أبيه وهذين الرجلين ، ولكنه يعرف أنه سافر إلى أنطاكية وكانت حاضرةً من حواضر المسلمين إلى سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة ، ثم ملكها الرومُ إلى سنة سبع وسبعين وأربعمائة حين استردَّها السلجوقيون . قالوا وكانت بها مكتبةٌ عربيةٌ تشتمل من نفائس الكتبِ على عدد غير قليل ، فحفظ منها أبو العلاء ما شاء الله أن يحفظَ .

نعم إن التاريخ لا يوقِّتُ لنا هذه الرحلةَ ، ولكنَّ روايةً تؤثر عن أسامة بن منقذ خبَّرتْنا أنه لقى بأنطاكية صبيًّا مجدورًا ذاهبَ البصر يتردد على مكتبتها ، فامتحنَه فبهرهُ حفظُه واستظهارُه ، ثم سألَ عنه فقيل هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرىُّ . ولا شك فى أن هذه الرواية إما أن تكون منتحلةً ، وإما أن يكون اسمُ أسامةَ قد وقعَ فيها خطأ موقع اسمِ أحد آبائه من أبناء مُنقذ ؛ فإن أسامة وُلدَ سنة ثمان وثمانين وأربعمائة . أى بعد موت أبى العلاء بنحو أربعين سنة .

---

(١) انظر أبا العلاء وما إليه للميمنى ص ٥١ .

لم ير أبو العلاء بأنطاكية تلك الحضارة الراقية النضرة التى وصفها ياقوت ، ولكنها وُصِفت له من غير شك وعرف آثارها بلا ريب ، ولعل تلك البنايات الضخمة ، والبيع الفخمة التى وصفها ياقوت أيضًا قد أظلت أبا العلاء حينًا ، ولعل قائده قد ذكر له محاسنها وما فيها من صنع بديع .

ولقد كان جمهورُ أهل أنطاكية حينئذ من الرُّوم ، تمثلُهم لأبى العلاء طمطمتهم الإغريقيةُ وعاداتهم الخاصة ، وكانوا فى تلك الأيام ظاهرين على أهل العواصم من المسلمين . فمن الواضح أن بؤس المسلمين بأنطاكية قد كان ظاهرًا يستطيعُ هذا الصبيُّ الذى بلغ من الرُّشد أن يتردَّد إلى المكاتب ويدرس فيها العلم ، ملاحظته والتفكير فيه .

فكلُّ هذه المؤثرات قد عَمِلت من غير شك فى تكوين المزاج الخلُقى والعقلى لأبى العلاء قليلاً أو كثيرًا .

* * *

سافر أبو العلاء بعد ذلك إلى طرابلس الشام . قال القفطىُّ والذهبىُّ : فمرَّ فى طريقه باللاذقية ، فنزل بدير فيها ، والقى بهذا الدير راهبًا قد درس الفلسفة وعلوم الأوائل ، فأخذ عنه منها ماشكّكه فى دينه وغيره من الديانات . قالا : ونمَّ عليه بذلك شعر الصبا . ثم استغفر وتاب والتمس لكلامه وجوهًا من التأويل قبلت منه ، ولكنهما لم يرويا شيئًا من هذا الشعر . أما مرجليوثُ فقد شكَّ فى هذا الخبر ، وظنَّ أن العرب يضيفون إلى الرهبان والنصارى عامة كثيرًا من الآراء التى يبعدُ ما بينها وبين الإسلام . ونحن لا نشك فى أن الصلة قد اشتدَّت بين أبى العلاء وبين النصارى ، قبل رحلته إلى بغداد ، بحيث استطاع أن يدرس دينهم ودين اليهود ويناقشهم فيهما ؛ فإن حياته بعد رجوعه من بغداد لم تكن حياة طلب وتعلم ، وإنما كانت حياة درس وتعليم . ثم هو لم يدرس مع المسلمين كتبَ النَّصارى واليهود . وإنما هو درس اللغة وآدابها . ولو أنه درس معهم شيئًا من الدين لحدَّثنا به التاريخ . وإذا لم يكن بدٌّ من ذلك فأبو العلاء لم يدرس

النَّصرانية واليهودية فى المعرة ؛ لأن حياتها العلمية لم تكن تسمح بذلك . فلا شك فى أنه قد درس هاتين الديانتين فى أسفاره الأولى ، فإما أن يكون ذلك فى أنطاكية ، وإما أن يكون فى اللاَّذقية .

أما نحن فنرجِّح أنه درسهما فى اللاذقية لأمرين : أحدُهما روايةُ المؤرِّخَين اللذين أشرنا إليهما آنفًا ، والآخرُ بيتان رواهما ياقوت فى معجم البلدان عند كلامه عن اللاذقيَّة ، قال : وقال المعرى (الملحد) :

فى اللاذقيَّة فتنةٌ ما بين أحمد والمسيح
قس يعالجُ دلبة والشيخُ من حنق يصيح

وتكملةُ هذين فيما يرويه غيرُ ياقوت قوله :

كلٌّ يعزّزُ دينه يا ليتَ شعرى ما الصحيح

فإن صحَّ ما روى ياقوت فقد أصابَ الشك الذى ذكرَه القِفطى والذهبى أبا العلاء باللاذقيَّة حين نزل الديرَ ، وسمع من أهلِه التوراةَ والإنجيل ، ومن رهبانه آراء الفلاسفة .

وكانت اللاذقيَّةُ حين زارَها أبو العلاء فى أيدى الرُّوم ، قال ياقوت : وكان للمسلمين بها مسجدٌ ومؤذن وقاض ، فإذا أذن مؤذنهم دقَّ الرُّومُ نواقيسَهم كيادًا لهم .

فهذه الحالُ التى أنطقَت أبا العلاء بهذه الأبياتِ وهى لا تُنطقه بها حتى تحمله على تفكيرٍ ينتهى به إلى الشكِّ والارتيابِ ، وهذا التفكيرُ يقتضى من قِبَل أبى العلاء درسًا وعنايةً ، فلا شك فى أن مرجليوثَ لم يوفق فيما ظن إلى الصواب .

وصل أبو العلاء إلى طرابلس[1] ، قال المؤرخون : وكانت بها مكتبةٌ كبيرة وقفها أهلُ اليسارِ ، فدرسَ منها أبو العلاء ما شاءَ ، ثم عاد إلى معرَّة النعمان .

---

(١) انظر أبا العلاء وما إليه للميمنى ص ٦٨ .

هذه هي جملةُ ما حفِظَ التاريخُ من سيرةِ أبي العلاء في الدرس . درسَ على أبيهِ ، ثم انتقل إلى حاضرةِ إقليمه فدرسَ على علمائها ، ثم رحل إلى مدينتين من مدُنِ الرُّوم فدرسَ فيهما ، ثم إلى طرابلس ، ثم عاد إلى بلدهِ . وقد قال أبو العلاء في بعض رسائله : إنه لم يحتج بعدَ العشرين إلى أن يأخذ العلم عن أحد في الشام ولا في العراقِ . وأبو العلاء عندنا صادقٌ إذا حدَّث عن نفسِه ، وليس في هذا الحديث من العَجب ما يدعو إلى الشكِّ فيه ، فإن عشرين سنةً يقضيها الفتى الذكيُّ الفطنُ منقطعًا للعلم والتحصيل في بلده ، وفي غيرِه من حواضرِ المسلمين والروم ، تكفي لأن تكوّن منه رجلاً قد أتمَّ الدرسَ ، وفرَغ من الطلَب فلم يبقَ له إلاَّ أن يحيا حياةً علميَّةً مستقلة ، لا يحتاجُ إلى مرشد ولا مؤدِّب إلاَّ الدَّهر وحوادث الأيام ودرسه الخاص . نعم إن أبا العلاء لم يبدأ في الدرس يومَ وُلد ، ولكنَّ عصرَ الطفولةِ ربما كان أحسنَ عصورِ التعلم[1] ؛ لأن الطفل يتلقَّى فيه دروسَه المكونة لنفسه عن الطبيعةِ الساذَجةِ ، من غير ما تكلف ولا تعمُّق . وإذا كان أبو العلاء قد أتم الدرسَ والتحصيلَ في سنِّ العشرين فلا شكَّ في أن سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة ، لم تظله حتى كان وادعًا في المعرَّة يعيشُ عيشةً غيرَ عيشةِ التلميذ .

موت أبيه

لقد مضينا في تفصيلِ الدرسِ الذي درسَه أبو العلاء ، حتى بلَغنا به سنَّ العشرين .

وكان من الحقِّ أن نقفَ به عندَ الرابعة عشرة من عمره ، على قبر أبيهِ الذي ماتَ سنة سبعٍ وسبعين وثلثمائة . ولكنَّا أحببْنا أن يطَّرد القولُ في درسه على نسق واحد ، حتى إذا فرغنا منه عدْنا إلى هذه الفاجعة ، التي فجعتْهُ ناشئًا ،

---

(١) يلاحظ أن ما يروى من نبوغ أبي العلاء في هذه السن ليس بدعاً من حال النابغين ، ومن قرأ حياة بسكال الفرنسي عرف أن أبا العلاء لم يجاوز العادة ولم يعد الطور المألوف .

ودهمته أحوج ما يكون إلى المُعين . لقد فقدَ أبو العلاء بصره ، فكان أحوج إلى أبيهِ من غيره ليغذوَه ويقضى حاجتَه ، وليسدَّ خلَّته ، ويذود الطارقات عنه ، ولكنَّ الدهرَ أبى إلا أن يسلبه هذا الوزر الذى كان يلجأ إليه ، والمعقلِ الذى كان يعتصم به ، ويتركه نهب الحوادث تدهمهُ وتُغيرُ عليه ، من غير أن يجد له عليها عونًا ولا نصيرًا .

على أنَّ فقد أبى العلاء والده فى هذه السنِّ لم يكن ليؤذيه من هذا الوجه وحده ، فربما استطاع أن يتعزى عن أبيهِ بأخواله ، الذين أحسنوا الرعاية لحقه ، ولكنه يحفظ فى قلبه تذكار ما عهد من برِّ أبيهِ به ، وحنوِّه عليه ، وهو الذى كان منهُ فى صباه مكان الأب والأستاذ معًا ؛ فقد تعهَّد جسمه وعقله وخُلقه بالتربية والتنشيء ، فصاغَه على مثاله ما استطاع ، وأشربه أخلاقه ، وخِلاَله ، وكل ذلك يترك فى النفسِ ذاتِ الحسِّ القويِّ والشعور الصادق أثرًا غير قليل .

* * *

رثى أبو العلاء والده لما مات بقصيدة أثبتها فى سقط الزند ، تمثل ما قرَض من شعر الصبّا ، وتحدث بما آل إليه أمره ، من شك واضطراب ، ومن بغض للدنيا وافتنان فى ذمِّها ، ولكنها مع ذلك فى حاجة إلى كثير من شدة الأسر وإحكام التركيب ، ومن صفاء الرونقِ وجمال الأسلوب ، ومن صدق التعبير عمَّا فى قلبه من الحزن على أبيه والأسى لفقده .

فإن تكلف الغريب والرغبة فى البديع ، والحرص على محاكاة الفحول ، والاجتهاد فى إظهار علمه ومقدرتهِ ، كل ذلك قد جعل شعره فى هذه القصيدة لا يكاد يعبر إلا عن فصاحة لسانهِ وقوَّة حافظته وقدرتهِ على النَّظم دون ما فى قلبه من تأثرٍ أو وجد .

مطلعُ هذه القصيدة قوله :

نَقَمتُ الرضاحتى على ضاحكِ الْمُزْن ... فلاَ جادَنى إلاَّ عَبُوسٌ من الدَّجْنِ

فليتَ فَمِي إن شامَ سنَّى تبسَّمى . فمُ الطعنةِ النجلاء تَدْمَى بلا سِنِّ
كأنَّ ثناياهُ أوانسُ يُبْتغى لها حسنُ ذِكرٍ بالصّيانة والسجنِ

فانظرُ كيف اتخذ للتعبير عن سُخطه صورًا ثلاثًا ليس فيهن صورةٌ تصلُح أن تكون شعرًا ؛ فإنه أثبت فى البيت الأول أنه لا يرضى عن شىء ، حتى السحاب الضاحك المبتسم ، وتمنَّى ألا يجوده من الدجنِ إلا العبوس المظلم ، وليس فى هذا كبير عناء فما كان السحاب الضاحك أحقَّ الأشياء بالرضا ، حتى يكون انصرافُه عنه دليلاً على بلوغه أقصى منازل السخطِ والاشمئزاز ، ولا سيما أنه مكفوفٌ لا يعرف جمال هذا السحاب ، ولا يقدّر الابتهاج بمنظره ، وليس السحاب العابسُ المظلم بأشدَّ ما يصيب الناس من الشر حتى يكون تمنيه إياه دليلاً على بغضهِ لصفو الحياة . بل قد يكون هذا السحابُ خيرًا حين تجود الأرض بما يكسوها من الزهر ألوانًا ، ويخرج منها من النبت فنونًا . والجدب المطلق شرٌّ منه فى كل حال . ثم انظرْ إلى الصورة التى مثلها فى البيت الثانى حين تمنَّى ، إن ابتسم ، أن يكون فمهُ كفم الطعنة النجلاءِ ، تفيض بالدم وليس لها سنٌّ ، فإنها صورة متكلفة متعمَّلة لا تطمئن النفس إلى موضعها من الدلالة على شدة الحزن . وكذلك الصورة الثالثة ليست أدلَّ على ما أراد من صاحبتيها . إنما هى تشبيهٌ لم ينبعث عن قلبٍ أسفٍ ولا نفس حزينة ، ولا خيال مُحسن للتأليف . شبَّه ثناياه بالحسان حرصن على الاحتجاب إيثارًا لحسن الذكر وطيب الأحدوثة ؛ يريد أنهن لا يبدون عن ابتسام . ومن الواضح أن ليس لهذا التشبيه من الجودة حظّ . وانظر إلى لفظ السجن كيف وضعه إلى الصّيانة فأبى الاستقرار ؛ لأنه يشعر بالمهانة والذلّ ، وتلك تشعر بالكرامة والعزة ، ولكن هذا الصبى الناشئ لم يُرد إلا أن يقرض شعرًا فى رثاء أبيهِ ، وأن يملأه بفنون البديع وألوان التشبيه ، سواء وصف الشعر حزنه حقًّا أم كان بينه وبين صدق الدلالة عليه أمدٌ بعيد . انتقل أبو العلاء من هذه الصُّورة التى أراد أن يمثل بها حزنه ، إلى موضوع القصيدة وهو موت أبيه فقال :

أبى حكَمتْ فيه الليالى ولم تزلْ رِماحُ المنايَا قادراتٍ على الطَّعْنِ

فانظر إلى الشطر الأول ، كيف قصرَ عن الدلالة على ما يريد من موت أبيه

لولا هذه الزيادة التى أوردَها مورد المثل . فقد تحكم الليالى فى المرء بالخير والشرّ كما تحكم فيه بالموت . فلولا قوله : « لم تزلْ رماح المنايا قادرات على الطعن » لما فهمنا نوعَ الحكم الذى أمضَته الليالى فى أبيه ، وقد كان له عن ذلك منصرفٌ لولا أنه لما يبلِ فنونَ الشعر ، ولما يتعود الخروجَ من مضايقها . على أن الصورةَ التى أورد بها موتَ أبيه ، أشدُّ ما تكونُ حاجةً إلى الروعةِ ، فإنها كما ترى مألوفةٌ قد جرى لفظها على الألسنةِ ، وكثر حضورُها فى الأذهان . ثم أخذ يصفُ أباه ويذكر من خلالهِ ما يحمل على الأسفِ عليه فقال :

مَضَى طاهرَ الجثمانِ والنفس والكَرَى وسُهدِ الْمنَى والجيبِ والذيلِ والرُّدْن

فليتَ شعرى إذا طهرَ جسمُه ونفسُه ، وعف نومُه وسهدُه ، فأى حاجة له إلى أن يوصف بطهارة الجيب ، وطهارة الذيلِ ، وطهارة الردنِ ؟ أليس هذا نوعًا من الإسهاب الذى لا خيرَ فيه ، ولا حاجةَ إليه لو لم تستتبعْه استقامة الوزن والقافيةِ ؟ على أن أبا العلاء إن فاتته الإجادةُ فى هذه الأبيات فقد أحسنَ إحسانًا لا بأس به فى قوله يصفُ وقارَ أبيه :

فيا ليتَ شعرى هل يَخفُّ وقارُه إذا صارَ أحْدٌ فى القيامةِ كالعِهْنِ

وهل يَردُ الحَوضَ الرَّوىَّ مُبادرًا مع الناسِ أم يخشَى الزحامَ فيستأنِى

حِجًا زَادَهُ من جُرأةٍ وسماحة وبعضُ الحِجَا يدعُو إلى البخلِ والجبن

لا بأس بهذه الصورة التى مثل بها وَقارَ الشيخ يوم القيامةِ وقد اضطرب كلُّ شىء فلم يستقر له قرارٌ لولا أن تكلُّف النظم ظاهر ؛ فإن تسكينَ الحاء من أحْد أمر لا حاجةَ إليه ، مع كثرة أسماء الجبال فى اللغة العربيةِ ، وكذلك لفظ القيامة قلقٌ غير مطمئنّ . ولم يكد أبو العلاء يَصلُ إلى هذا الموضع من قصيدتِه ، حتى أخذ شعره ينمُّ عليه بسوء رأيه فى الدُّنيا ، فافتنَّ فى ذمِّها والنعى عليها ، وكانت هذه القصيدة بادرةً تنبئُ بما سيؤولُ إليه أمره ، ومقدمةً تدل على ما سينتهى إليه فى نظم اللزوميات .

استنزلَ على الدنيا غضبة الله ، وكنَّاها بأمِّ دَفْر ، وبهذه الكنيةِ دعاها فى شعره ونثره إلى أن مات ، ثم تكلَّف فى وصفها وتشبيهها بالمرأة ، فجعل النهار

محيّاها ، والشمسَ جمالَها ، والليلَ شعرَها الفاحمَ ، والثريّا والسّماكين شيبها الناجم فيه ، ثم عرّض بأن الدُّنيا زانيةٌ تئدُ أولادَها خشية أن تفتضحَ بهم ، وذلك رأيٌ فصّله غيرَ مرة في اللزوميات . ثم بيّن حرص الكائنات الحية على النفس فلم يفرق في ذلك بين الإنسان والحيوان والطير ، ولا بين العامّة والخاصة والأنبياء . وذلك أيضًا رأيٌ له في اللزوميات . ثم عاد إلى أبيه ، فهنأه بمنزله الجديد ، وأظهرَ الشكَّ الشديد في مصير الناس بعد الموتِ فقال :

طلبْتُ يقينًا من جُهينةَ عنهُمُ ولن تُخبريني يا جُهينُ سِوَى الظنِّ
فإن تعهديني لا أزالُ مُسائلاً فإنيَ لم أُعطَ الصحيحَ فأستغني

وهذا الشكُّ أظهرُ أوصاف أبي العلاء في شعره الفنيِّ والفلسفي ، كما سترى في المقالة الثالثةِ . ثم لم يزل يذكرُ أباه بالخير يُسهل مرةً ويُحزِنُ أخرى حتى قال :

ونادبةٌ في مِسْمَعي كلُّ قينة تغرِّدُ باللحنِ البريء عن اللحن

فذكر بهذا البيت معنى له ردَّده غيرَ مرة ، ولكنه تكلَّف فيه هنا هذا الجناس الثقيل ، فأنت ترى أن هذه القصيدةَ تخلو خلوًّا تامًّا من الدلالة على حُزن قد ملكَ قلب الشاعر ولسانهُ ، واستأثر بنفسه ووجدانه ، ولسنا ننكرُ على أبي العلاء هذا الحزن ، ولكن ننكرُ دِلالةَ هذه القصيدة عليه ، ثم إن لك من هذه القصيدة ما ينبئُك بمستقبل هذا الصبيِّ ، وما سيأخذُ نفسه من الشدَّة والعنف في كلِّ شيء ، فهو شديدٌ في لفظه ، شديدٌ في معناه ، شديدٌ في سيرته . وعلى الجملة تمثِّل لنا هذه القصيدةُ حياةَ أبي العلاء العقليةَ في سنِّ الرابعة عشرة ، وتدلُّنا على أنه سيكون على حظّ موفور ، من إتقان النظم المتكلَّف ، وإجادة الصناعة المتعملة ، ورواية الشيء الكثير من اللغة والإحاطة بالشيء الموفور من أساليبها ، ثم هي بعد ذلك كله ، تدلُّ على أن دراسته اللغويةَ قد كانت مثقفةً محكمةً ، فإنّا لا نعرف أن تكلفهُ قد اضطرَّه إلى لحنة منكرة ، أو غلطة شنيعة ، وإن كان قد وضع « أم » بإزاء « هل » وللناس فيها قول كثيرٌ .

الآن وقد مثلنا حياة الشاعر في طوره الأول ، إلى أن بلغ عشرين سنةً ننتقل

إلى بقية أيامه ، بعد أن نلاحظَ طائفةَ المؤثرات ، التى كونت نفسَه . وأعدَّتْها لاستقبال ما سيلقاهُ من حوادث الدهر . فهو لم يبلغ الرابعةَ حتى ذهب بصره ، ولم يبلغ الرابعة عشرة حتى فقدَ أباه . وذلك كلُّ ما يحفظهُ التاريخ من مصائبه الكبرى ، فى هذا الطور . ثم هو بعد ذلك قد أتقنَ الدرسَ اللغوىَّ على أبيه ؛ فتأثَّر بعلمه وأخلاقه معًا . ثم رحلَ إلى حلبَ فأخذ عن شيُوخها . وتأثر بما لهم من علم وأدب ، وبما فى المدينة من حضارة ومدنية . وكان مقيمًا فيها عند أخواله ، فلقى من حنانهم عليه ، وبرّهم به ، ما ترك فى نفسه أثرًا صالحًا . واستأنفَ الرحلةَ بعد ذلك إلى مدينتين روميتين ، هما إنطاكية واللاذقيَّة ، فدرسَ فيهما الكتبَ ، ولقى فيهما النصارَى ، وسمع مقالات الفلاسفة ، وشهد آثارَ الحضارة الإغريقيَّة ثم انتقل إلى طرابلس[1] ، فوعى ما شاءَ الله أن يعىَ : مما اشتملت عليه مكتبتُها الكبرى ، من العلم على اختلاف فنونه. وعاد بعد ذلك إلى المعرة وقد فقدَ أباه ، وليس له من يقومُ بأمره .

الطور الثانى من حياته

بقى أبو العلاء فى المعرَّة ، من سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة ، إلى سنة ثمان وتسعين وثلثمائة ، أى خمس عشرةَ سنة ، لا يحدثنا عنه التاريخُ فيها بشىء ، ولا يبين لنا كيف كان يقضى يومهُ وليلهُ . ولا شكَّ أنه قد عاش فى هذه الأيام عيشةَ الشعراء ، يقرضُ الشعرَ ، ويجالسُ من حضرهُ من ظرفاء قومه . وهو فى كلّ ذلك لا يسعى إلى التماس عيش ، ولا إلى اكتساب قوت . فقد كانت له ثروةٌ ضئيلةٌ تقوم بحاجاته ، وهى ثلاثون دينارًا فى السنة ، يغلّها عليه وقفٌ لقومه ، وقد خصصَ نصفها لخادمه فهو يعيش بخمسة عشرَ دينارًا ، أى سبعة جنيهات ونصف يقضى منها حاجاته طول العام . لا يشكُّ التاريخُ فى ذلك ، ومن الواضح أن هذا المقدارَ لايكاد يسدُّ حاجة أشدّ الناس بؤسًا وأكثرهم فقرًا ،

(١) انظر ص ١٤٧ من ذكرى أبى العلاء .

ولقد كانَ من اليسيرِ على أبى العلاء ، أن يرتزقَ بشعرهِ ولكنهُ لم يفعل ، وآثر الفقرَ وضيقَ ذات اليدِ على الثروةِ يراقُ فى سبيلها ماءُ الوجهِ ، ويحتملُ فى تحصيلها ذل السؤالِ . وهنا تظهرُ آثار ما ورثَ عن أسرتهِ وقبيلته من خلق العزَّة ، فإن هذه الآثارَ حين انضمَّت إليها فطرته السليمةُ ، ودراستهُ الفلسفيةُ الصحيحةُ ، أغلت عليه قيمته ، ومنعتْهُ من ابتذالِها ، فكرهَ أن يكونَ كغيره من الشعراءِ يصوغُ الأكاذيبَ ليتوّجَ بها طائفةً من المتغلبين الذين يظلمون الناسَ ، ويسلبونَ أموالهم لينفقوها فى أهوائهم وملذاتهم . كرهَ أبو العلاء ذلك ، ولا شكَّ فى أنه تصورَ شيئين عند ما خطرَ له خاطرُ التكسبِ بالشعر :

أحدهما : بشاعةُ الكذبِ ، وقبحُ أثرهِ فى نفس الكاذب ونفسِ المكذوبِ عليه . فإن الكاذبَ إذا اطمأنَّ إلى هذا الخلقِ ، اعتادَ الجراءةَ الخطرةَ ولم تكن للحياةِ فى نفسه قيمة ، يستحلُّ كلَّ شىء للحصولِ على ما يريدُ . وكذلك المكذوبُ عليه إذا سمعَ ما يصاغُ فى مدحهِ ، من طوال القصائد غرَّه ذلك وأغراه بما هو فيه من ظلم وجور ، وقتل فى نفسهِ ما عسى أن يكونَ لها من حسٍّ أو شعور ، وخيل إليه نقيصته فضيلةً ، ومذمته محمدةً ، ونكره عرفًا ، فكانت حياتهُ شرًّا على نفسهِ وعلى الناسِ .

وكذلك الذين يسمعون مدحَ الظلمة والثناء على المفسدين ، يخدعُهم ما يسمعون ، فيكذبون أنفسَهم ، ويصدقون الشعراءَ ، فإن كان لهم من الفطنة والذكاء ما يمنعهم من ذلك ، فإن اليأسَ يدركهم لا محالة ؛ إذ يرونَ ظلمًا يُمدحُ ، وجورًا يعظَّم ، وفسادًا يثنَى عليه .

الثانى : أن ما يفيده من التكسب فى الشعر إنما هو مال حرامٌ قد استُحِلَّ ظلمًا ، وربما كان صاحبهُ مضطرًّا إليه ، وربما كان رزق صغارٍ ضعفاء أو امرأة عاجزة ، ولا شك فى أن أصحابه لم يسلموه إلا كارهين ، لم تطب عنه نفوسُهم ولم تسمح به قلوبهم ، ولعل مغتصبه يلتذ به ، وصاحبه ينفق الليل فى لعنه واستعداء القضاء عليه . ولن ترى أقسى قلبًا ولا أغلظَ كبدًا ، ولا أكدر طبعًا ولا أفسد مزاجًا ، من رجل يستمدُّ لذته من ألم الناس ، وراحته من كدهم ، وسعادته مما يحيطُ بهم من ألوان الشقاء . كل هذه الخواطر خطرت لأبى العلاء ،

حين عرض له التكسبُ بالشعر ، فصادفت منه نفساً أبية ، وقلباً رحيماً ، ومزاجاً معتدلاً ، ورجلاً مستعداً للزهد ، فصرفته عما تهالك الناسُ عليه وجعلته أعجوبة أيامه . فإنا لا نعرف شاعراً فى تلك الأيام استكبر على التكسب بالشعر . بل نكادُ لا نعرفُ للشعراء غرضاً واضحاً من شعرهم أكثر من التماس العيش به . نعم إن أبا العلاء حين امتنع عن التكسب بالشعر لم يكن للناس قدوة ، ولم يستطعْ أن يمحوَ هذه الرذيلة . ولكن الرجل لا يؤخذ إلا بفعله ، وليس عليه إذا صلُحَت سيرته ذنب المفسدين من الناس .

ولقد ظنَّ مرجليوثُ أن أبا العلاء تكسَّب بشعره فى طوره الأول ، وخيل إليه أنه مدح سعد الدولة ومدح خصومَه من قواد الفاطميين ، ولكنه لم يستطعْ أن يقيم على ذلك برهاناً ، ولا أن يثبته بدليل ، أما نحنُ فأبو العلاء عندنا أصدقُ من مرجليوث ، وهو قد حدَّثنا فى مقدمة سقط الزند[1] : أنه لم يمدَحْ أحداً ولم يستفد بشعره مالاً ، فإن كان قد ورد فى ديوانه شئ من المدح وكذبه فإنما ذهب إليه مذهب الرياضة وتمرين القوَّة الشعرية ، ولذلك لا تجدُ فى مدائحه أسماء معروفةً للأمراء الحمدانيين والعبيديين فى عصره[2] .على أنه قد وهب مدائحه هبةً عادلة ، فجعل ما يصلحُ منها لله وقفاً على تمجيده وتعظيمه ، وما يصلُح للناس وقفاً على أشد الأخيار استحقاقاً له ، واستقال الله مما لا يصلح لشىء . على أن لأبى العلاء مدائح هى مستثناةٌ من هذا كله ، وهى التى بعث بها إلى أصدقائه جواباً عما بعثوا إليه من قصائدهم أو نحو ذلك ، فهذه القصائدُ لم يعتذرْ منها أبو العلاء ،بل ذكرها فى ديوانه وبيَّنَ أسبابها والأشخاصَ الذين أرسلت إليهم، وإن كان قد منعهُ الحياء من أن يذكرَ مدائحهم له وقصائدهم فيه . وجملةُ القول أنَّ الوراثةَ وخلقَ الحياء وكبرَ النفس والأنفة من الكذب والرحمة بالضعفاء قد اشتركت فى حرمان أبى العلاء لذةَ التكسب بالشعر فى طور شبيبته .

* * *

شهد أبو العلاء فى أثناء إقامته بالمعرة ما فصلناه فى المقالة الأولى ، من الفتن

---

(١) المقدمة ص ٨ من شرح التنوير طبع المطبعة العالمية بمصر .

(٢) إلا أن يكون من هذه الأسماء سعيد أبو الفضائل صاحب حلب الذى قدمنا ذكره وما أقطع بذلك.

العظيمة والحروب الهائلة ، بين الحمدانيّة والفاطميّة والروم . وقد كانت هذه الفتنُ بين سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة ، إلى سنة ستّ وثمانين وثلثمائة ، وهى السنةُ التى مات فيها العزيز صاحبُ مصرَ . وقد قدّمنا أن أبا الحسن الحسينَ بنَ على المغربى ، كاتب بكجورَ رحل إلى العزيزِ ، بعد أن قتل أبو الفضائل صاحبه ، فأغراه بأخذ حلب ، ودبّر له تلك الحروبَ التى كانت شرًّا على حلبَ ومصرَ معًا . وستعرفُ عند الكلامِ على رسائل أبى العلاء ، أنه كتبَ رسالتين إلى أبى القاسم ، المعروفِ بالوزير المغربىّ . وهو ابنُ أبى الحسنِ هذا . إحداهما رسالةُ المنيح ، والأخرى رسالةُ الإغريض ، فلِمَ كتب إليه هاتين الرسالتين ؟ أما رسالةُ الإغريض فقد كتبها إليه تقريظًا لكتاب اختصر به إصلاحَ المنطقِ لابن السكيت ، أما الأولى فهى التى نجهلُ موضوعَها ، وقد عنى مرجليوثُ نفسُه بالبحث عن الغرض الذى كتبت فيه ، فلم يظفر بطائل ؛ ذلك أن مرجليوثَ يجهلُ الوزيرَ المغربىَّ ، فلا يعرفُ أكتبَ أبو العلاء إلى أبى القاسم أم إلى أبيه ؟ وهل كلا الرجلين يلقَّبُ بالوزير المغربىّ ؟ أهما شخصٌ واحدٌ أم شخصان ؟ كلُّ هذه مسائلُ لم يستطع مرجليوثُ أن يجزمَ فيها بشىء . ولما كان لا يرتابُ فى أن المغربىَّ الذى يجهلُ حقيقةَ اسمه وشخصه قد أغرى العزيزَ بأخذ حلبَ ، فقد ظنَّ أن رسالةَ المنيح التى كتبها أبو العلاء إلى الوزير المغربىّ ، إنما هى رسالة سياسيةٌ تتصل بما بين حلبَ ومصر من الفتنة ، وانتقل من ذلك إلى ترجيحِ أن المعرةَ قد كانت تميل إلى مصر . وأن أهلها قد ندبوا أبا العلاء للإجابة عن رسالة سياسية كتبها إليهم هذا الوزير .

والحقيقةُ أن المسألة تحتاجُ إلى عناء كثير ؛ لغموض الرسالة التى كتبها أبو العلاء وضياعِ الرسالةِ التى كتبها المغربىُّ . فإنا لا نعرف فى رسالةِ أبى العلاء إلاّ مدحَ الوزيرِ ، والافتنانَ فى الثناء على أدبه ، وأن أهلَ المعرةِ فرحوا برسالته ، وأنه عاجزٌ عن توفية حقِّها من الثناء ، وعن أن يجيبَ عليها بما هى أهلٌ له ، ولا شىءَ أكثر من ذلك . ولكنا لا نشكُّ فى أن الوزيرَ المغربىَّ إنما يطلقُ على أبى القاسم وحدَه لا على أبيه[1] ، وفى أنَّ أبا القاسم هذا ، قد كان طريدَ المصريين قتلوا

(١) انظر أبا العلاء وما إليه للميمنى ص ٩٧ .

أباه ونكبوا أسرته ، فخرجَ يؤلّب عليهم عرَب الشام ، وظفِرَ من ذلك بالشيء الكثير ، ثم زار بغدادَ والموصلَ فى خطوب لا حاجة لنا إلى شرحها الآن ، ومات سنةَ سبعَ عشرةَ وأربعمائة ، وهو مغضوب عليه من خلفاء مصرَ وبغداد جميعًا ، وقد وُلد أبو القاسم هذا سنةَ سبعين وثلثمائة . فكان فى أيام الحروب التى دبَّرَها أبوه أصغرَ من أن يتناول المسائلَ السياسية ، وألّف كتابه الذى قرظه أبو العلاء ، سنة سبع وثمانين وثلثمائة ؛ أى فى ولايةِ الحاكم ، فلا شكَّ فى أنه لم يكتبْ إلى أبى العلاء وقومه أيامَ العزيز . أى لم يكتب إليهم ليستخفّهم إلى نصر المصريين : فإن كان قد كتب إليهم أيامَ الحاكم فقد عرفْنا أنه كان مغاضبًا لهذا الخليفة . فلا شكَّ إذًا فى أنه كتب إليهم ، يؤلبهم عليه إذا كانت رسالتهُ سياسيةً .

ونحن نرجّحُ أنَّ هذه الرسالة لم تتناول السياسةَ أو على أقلّ تقدير ، لم تتناوَل السياسة المصرية ، وأكثر ظننا أن رسالةً أدبية كتبت إلى أبى العلاء ، فأجاب عنها ، فإن كان قد ذكر أهل المعرة فتلك عادةٌ له فى كثير من رسائله . لذلك نميلُ إلى أنَّ أبا العلاء لم يتناول سياسة مصر وحلب فى طوره الأول والثانى إلى أن ارتحل إلى بغداد سنة ثمان وتسعين وثلثمائة كما سنرى بعد قليل .

* * *

وقد اتّفقَ أكثرُ المؤرخين الذين كتبوا عن أبى العلاء ، على أنه كان فى أثناء شبيبته فى المعرةِ يجالس الظرفاء ، ويتصرّف فى فنون الهزل والجدّ ، ويلعبُ النرد والشطرنج ، ويقول إنهُ يحمد الله على العمى كما يحمده غيره على البصر .

فأما مجالستهُ للظرفاءِ وتصرفهُ فى الهزل والجد ، فأمرٌ ليس فيه نكيرٌ عليه ، بعد أن عرفنا ذكاء الشاعر وفطنته ونبوغَه فى فنّ الشعر . وأما لعبه النرد والشطرنج ، فيحتاج إلى شيء من التحقيق . وما نشكُّ فى إحدى اثنتين : إمّا أن تكون الرواية مكذوبةً مصدرها المبالغةُ والإغراق ، فيما شاع من ذكاء الرجل وقوة حسّه ، وصدق فطنته ، وإما أنْ يكون لعبه للشطرنج قد كان بأحجار معلمة تميزها

الأيدى ، وذلك شيءٌ لم نصل إلى معرفته الآن ، وربما كان يلعب الشطرنج بلسانه كما يلعبه أهلُ الغرب الآن برسائل البرق والبريد . فأما حمدُه الله على العمى كما يحمده غيره على البصر ، فلا يدلُّ إلا على ثقة عقله ، واطمئنان نفسه إلى هذه الحياة ، واحتماله ما فيها من خير وشرّ ، حين عرف أنَّ الحزن والتفجعَ لا يغنيان عن المرء شيئًا ، وأن الأسف لا يردُّ فائتًا ، ولا يستدركُ فارطًا . فهى كلمة تسلية وعزاء أكثر من أن تكون إخبارًا صادقًا ؛ فإن ذهاب بصره لم يزل يُثير فى نفسه شيئًا من الحزن ، ويكلفه ألوانًا خاصة من الشدة ، حتى فى أيام حكمته وفلسفته .

روى القفطى أنه كان يحبُّ الاستتار فى كل شىء ، ويقول إن العمى عورةٌ فيجب ألا يظهر الناس عليه ، لذلك اتخذ له نفقًا يأكل فيه على غير مرأى ، حتى من خادمه الذى ارتفعت بينه وبينه الكلفةُ وزال الحجاب . قال القفطى: وقد أكل ذات يوم دِبسًا ، فسقطت قطرةٌ منه على صدره ، وهو لا يدرى . فلما خرج للدرس رأى الطلابُ ذلك ، فقال له بعضُهم : يا سيدى أكلت دِبسًا ، فأسرع بيده إلى صدره ، وقال : نعم . لعنَ الله الشرهَ . فهذا يدلُّ على أنه لم يكنْ يرى العَمى خيرًا ، وإن تحدث بذلك غير مرة . نعم إنه قد تعزَّى عنه وصبر عليه ، وكان يذكر نفسه بالضرير ، ولكنَّ ذلك ليس إلا أثرًا من آثار اطمئنانه الفلسفىِّ كما قدمنا .

* * *

والظاهرُ أن هذه الحياة التى احتملها أبو العلاء فى المعرة ، قد ثقلت عليه فملَّها ، ورأى أنها لا تصلحُ له ، وأنَّ نفسه لا تستطيعُ أن تطمئنَّ إلى عيش ملؤه الخمول وقلةُ العمل ، وأن المعرَّة لا تحتوى من العلم على ما يحتاجُ إليه ، وكذلك مدنُ الشام ، وأن بغداد هى دارُ العلم وموطن الأدب والفلسفة . فإذا رحل فمن اليسير أن يجد ما يحتاجُ إليه من العلم والأدب ، ومن الفلسفة والحكمة . وهو بعد ذلك يُغالى بنفسه . ولعله كان يطمعُ فى الشهرة والصيت البعيد . وليس إلى ذلك من سبيل إلا بغداد .

وقد ذكر مؤرخوه أنه إنما سافرَ إلى بغداد شاكيًا ، تعرَّض صاحب حلبَ لما فى يده من الوقف الضئيل . وقد قدَّمنا ما فى ذلك من الشكِّ عندنا وعند مرجليوثَ وسلمون .

ونحن نعتقدُ أنَّ حبَّ العلم ، وطلب الشهرة وسعة العيشِ ، وبغض الحياة السياسية بحلب وما آلت إليه من الاختلاف والفتن ، هى التى كونت فى نفس أبى العلاء عزمَه على الرحلة عن بلاد الشام إلى بلاد العراق .

رحلته إلى بغداد

مدينة بغداد

فى سنة خمس وأربعين ومائة للهجرة شرع أمير المؤمنين المنصورُ العباسىُّ فى إقامة مدينة يتخذُها حاضرة لملكه ، حين تأذَّى بالهاشمية التى أقامها أخوه أبو العباس السفَّاح . قال ياقوت : وكان أهل الكوفة يفسدون عليه جنده ، فأراد فراقهم . وفى سنة تسع وأربعين ومائة تم بناءُ المدينة ، فانتقل إليها المنصورُ ، وأصبحت حاضرة العالمِ الإسلامىِّ ، الذى خضع لبنى العباس بالفعل أو بالاسم ، إلى أن سقطَت فى أيدى التتار سنة ست وخمسين وستمائة .

وفيما بين إقامة المنصور لها ، وإسقاطِ التتار إياها ، اختلفت عليها أطوارُ رقىٍّ وانحطاط فى كل شىء . فكانت حين أقامها المنصورُ مدينة جميلة عظيمة العمرانِ ، تزدان بقصرِ الخلافة والقبة الخضراء وغيرها من رفيع البناء .

وقد وفَّر عليها المنصورُ أسباب النعمة والترف ، فساق إليها الماء ينفذُ إلى الدور والدروب ، حتى لا يتكلَّفَ أهلُها الاستقاء من النهر . ولم تمض عليها سنون حتى ضخُم عمرانُها ، وتجاوزت خططُها ما أحاط بها من السُّور ، وأصبحَت مقرَّ الأسرة المالكة من بنى العباس ، ومقامَ الأشراف من العرب والفرس ، وملتقَى التجار من أنحاء البلاد الإسلامية ، وكعبةً يقصدُ إليها الشعراء والعلماءُ من اللغويين والرواة ، ومن الفقهاء والمحدِّثين ، ومن الأطباء والمنجمين ، ومن التراجمة والمعرِّبين .

وكان سلطانُ بنى العباس يقوّى بحسنِ بلائهم فى جهاد الروم ، فينشأ عن قوة الدولةِ السياسيةِ أمنُ البلاد وانتظامُ الجباية ، فيكثرُ ما يحملُ إلى بغداد من الأموال . وإنما كان يحمل إليها ضرائبُ العالم الإسلامىّ كله ، حاشا بلاد الأندلس ، فكانت الأموالُ الكثيرةُ والقوة السياسيةُ العظيمة ، تستهوى أفئدة الناس إلى بغداد ، فيأتون إليها ، ومنهم من يلتمسُ بها المقامَ لتحصيل القوت بالتجارة والصّناعة ، ومنهم من يطلبُ حياة المناصب والدواوين ، ومنهم من يبتغى الصّيت بالعلم والأدب ، ومنهم من يريدُ أن يلمَّ بالمدينة ريثما ينشد الخليفة أو أحد أعوانه قصيدةً تملأ يديه بالمال ، ثم ينقلب إلى أهله راضيًا مسرورًا .

والمدينةُ بعد قائمةٌ على الجانب الغربى لدجلةَ ، وهى طيّبةُ الهواء ، صافية الجوّ ، نقيةُ أديم الشمس . فلما زهَت وزارة البرامكةِ وعظُم سلطانهم ، بنى جعفرُ بن يحيى فى أيام الرشيد قصرًا فخمًا فى الجانب الشرقىّ للنهر . وإنما أراد أن ينفرد فيه لألوانِ لهوه وخلاعتِه فيما يقولُ المؤرخون ، ولإظهار سلطانه وتدبير أمره فيما نعتقدُ . فلما أحسَّ جعفرٌ من الرشيد سوء الظنّ ، وخشى أن يسوءَه مكانُ هذا القصر ، زعمَ له أنه إنما بناه للمأمون ، فقبل الرشيدُ منه . وكان هذا القصر السببَ الأول فى إقامة العمارات الضخمة على الجانب الشرقىّ لدجلة ، فأقام المعتضد التاج ، وأتمه المكتفى وانتقل الخلفاء إليه حينًا . كما أن اتساعَ العمران ببغداد وازدحامَ السكان فيها ، وحشد الناس إليها من أطراف الأرض زهّدَ فيها الخلفاء ، فبنى المعتصمُ « سرَّ من رأى » وأقام بها الخلفاء حينًا . على أن ضعفَ السلطان العباسىّ وقوة المتغلّبينَ من الترك والديلَم ، ثم كثرةَ الفتن التى نشأت عن تشغيب الجند ، وثورات الحنابلة ، والخلاف بين السنيّة والشيعة ، وانهماك الخلفاء والملوك فى اللذة ، وكسلهم عن العناية بالقصور الضخمة ، والصروح الفخمة التى أقامها المنصور وبنوه ، كلُّ هذه الأسباب أصابت بغداد بشىء من التخريب غير قليل . ولكن ما أصابها من النكبات على كثرتها — وإن غيّر رسومها وشوّه محاسنَها — لم يغير شيئًا من بنائها الخيالىّ ، الذى كان فى نفوس العالم الإسلامىّ كافة ، فقد بقيت فى نفوسهم مدينة العلم ، ودار الخلافة ، وحاضرة الإسلام .

وكان لفظُ مدينة السلام إذا أطلقَ مثّل فى نفوس الناس صوراً مختلفة هى المثُلُ العليا للرقى عنده ، فهو يمثلُ فى نفس التاجر أرقى مدُن التجارة ثروة ، وأحسنها نظاماً ، وأكثرها أمناً ، وفى نفس العالم أرقى مدن العِلم درساً ، وأكثرها عدد علماء نابغين ، وأوفرها كتباً ، وكذلك الحالُ فى الأديبِ وغيره من أصحابِ الفنون والصناعاتِ .

فأما الفقهاءُ والمتكلمون فحدّث ما شئتَ عن شغفهم ببغدادَ وهيامِهم فيها ، وعما كان لهم من مجالس المناظرة والجدال . حدّث ما شئت ولا تخشَ معترضاً أو مكذّباً ، ولكن خف شيئاً واحداً يمكنُ أن ينالك منه ما تكرَهُ ، وهو ذلك الأسَى المؤلمُ الذى يملأ قلبكَ إذا ذكرت هذا المجدَ العلميَّ القديم الذى اندرسَ ولم يورّثنا إلا الحسرةَ والأحاديثَ .

لم تكن الحالة السياسية فى بغداد راقيةً أيامَ أبى العلاء ، بلْ كانت فى شرّ منازلها من الضعف والافتراق ؛ خليفةٌ مغلوبٌ على أمره ، وملكٌ من بنى بويه قد عجزَ عن تدبير ملكه ، وجندٌ لا ينفكون فى ثورة وهياج لسوء التدبير ، وكثرة المطامع وانقطاع الأرزاقِ .

فأما الحياةُ العلميَّةُ فقد كانت على شدة الاضطرابِ السياسىِّ غضةً نضرةً ، وربما امتازَ عصرُ أبى العلاء بالمجامع العلميَّةِ ببغداد ، فقد كان للأدباءِ على اختلافهم مجمعٌ زعيمه الشريفُ الرضىُّ ، ومجمعٌ آخر حول الوزير سابورَ بن أردشيرَ ، الذى خصَّص الثعالبى فى اليتيمة فصلاً لمدحه . وكان هناك مجامعُ فلسفيةٌ وكلاميةٌ ، منها العامةُ التى يشهدُها الناسُ كافةً ، كمجمع الشريف المرتضى ، ومنها الخاصةُ التى لا يشهدُها إلاّ أفرادٌ تآخوا واتفقوا على ألاّ يحضرَ اجتماعَهم إلاّ من نحا نحوَهم فى الرَّأىِ كالمجمع الذى كان يلتئمُ يومَ الجمعةِ من كل أسبوع ، فى بيت أبى أحمد عبد السَّلام بن الحسين البصرى ، صاحب الصَّوت البعيد فى علم تقويم البلدان . وكانت المحاضراتُ العامةُ تلقى على الناسِ ، من أئمة اللغةِ والفقهِ والكلامِ ، وحسبُك أن تعلمَ أن أبا حامد الإسفراييني ، وهو من فقهاء الشافعيَّةِ ، كان يحضرُ درسَه فى الفقه سبعمائة من الطلبة : منهم التلاميذ

المتعلمون ، والأساتذةُ المعلمون والرجوعُ إلى ترجمتهِ فى وفياتِ الأعيانِ يدلك على صحةِ ما نقولُ .

أما مجالسُ المناظَرةِ فى الفقهِ والكلامِ ، فيمثلُ جلالَ خطرها شعرُ أبى العلاء ونثرهُ أحسنَ تمثيل . وكان ببغداد فى عهد أبى العلاء مكتبتان عامتان انفردتا بالشهرةِ فى الآفاقِ ، وبالخلود فى التاريخ : إحداهما قديمة أسسَها الرشيدُ وهى بيتُ الحكمةِ ، والأخرى حديثةٌ أنشأها سابورُ بن أردشير سنة إحدى وثمانين وثلثمائة ، وقد وصفها ياقوت عند كلامهِ على محلتِها وهى بين السورين فقال : إنها اشتملتْ على أصحِّ الكتُب وأوثقها فى كل فنّ ، وقلَّما خلا كتابٌ من كتبها من خطِّ إمام معروف . قال : وقد احترقَتْ هذه المكتبةُ سنة سبع وأربعين وأربعمائة حين دخلَ السلاجقةُ بغداد .

ولئن كنَّا قد أطلنا القولَ فى وصف بغدادَ فما أدَّينا بعض حقها التاريخىِّ ، من حيثُ هى مدينةٌ كانت منزلتُها عند المسلمينَ فى عصر أبى العلاء وقبلَه أشبهَ بمنزلةِ باريسَ خاصةً ، والمدن الكبرى الأوربية عامَّةً عندنا الآن . فإنكَ لا ترى فى العالم الإسلامىِّ كله شابًّا أتمَّ الدرس فى بلده ، إلاَّ وهو يتحرَّقُ شوقًا إلى الرِّحلةِ إلى إحدى هذه المدنِ ليدرس العلمَ فى أصفى مواردِه ، وأعذبِ مناهلِه . وكما أن ناسًا يذهبون إلى هذه الحواضرِ الأوربيَّةِ للَّهوِ واللَّعب لا للدرس والتحصيلِ ، فقد كان ناسٌ فى تلك العصورِ ، يرحلون إلى بغدادَ لا يريدون إلاَّ الفسقَ والمجون .

ومن هنا نُقلَ ذمٌّ بغدادَ عن بعض العبَّاد والصالحينَ ، كما يذمُّ باريس بل القاهرةَ طائفةٌ منَّا الآن ، وكذلكَ ذمَّت بغداد بالغلاء ، وأنَّها لا تصلحُ إلاَّ للمترفين الذين يملكون القناطيرَ المقنطرةَ . وذمَّها بعضُ الأعرابِ بأن أهلَها متحضرُون ، وكأن أعرابيًّا دخلَها فألجأه الفقرُ إلى خان حقير ، فلما عبثَت بجسمه حشراتُ الفراشِ ذم المدينة كلها بكثرةِ البراغيثِ .

هذه القيمة التاريخيَّةُ لبغداد جعلت لها فى الآداب خصائص أشبه بالأساطير التى تحيط بتاريخ رومة ، فإذا أردت أن تعرف تفصيلَ ذلك فاقرأ ما كتبَ فى

تاريخ بغداد من الكتُبِ الطوال والقصار ، وقد ذكرها ياقوت فى معجمه الجغرافىّ بتفصيل لا بأس به .

* * *

إلى هذه المدينة التى مثّلنا صورتها فى نفوس الناس ، وحقيقة حياتها التاريخية ، رحل أبو العلاء سنة ثمان وتسعين وثلثمائة ، لتلك الأسباب التى فصلناها آنفًا ، وقد أثبت ابن خلكان وتبعه المرحومُ جورجىَ زيدان أن أبا العلاء دخلَ بغداد مرتين ، ولسنا نعرف ذلك فى شعر أبى العلاء ولا فى نثره ولا فيما كتبَ عنه القفطىُّ والذهبىُّ ، وياقوت والصفدىُّ ، وهم الذين ينبغى أن يعتمد عليهم فى تاريخه ، وكذلك لم يذكر مرجليوث وسلمونُ ودائرة المعارف الإسلامية ، التى يكتبُها المستشرقون ، أنه دخلها مرتين . وذكر ذلك الأستاذ هيارُ الفرنسى ، فى كلمة موجزة كتبها عنه فى كتابه المختصر ، المعروف بتاريخ الآداب العربية . وكأنه اختصرها من ابن خلكان . والراجحُ عندنا أنهُ دخل بغداد آخر سنة ثمان وتسعين وثلثمائة ، فمكث فيها إلى رمضان سنة أربعمائة ، فالتبس الأمر على ابن خلكان وقلده هيارُ وجورجى زيدان ، من غير بحث ولا تفكير .

* * *

وذلك أن أمّ أبى العلاء مانعت فى سفر ابنها إلى بغداد بادئة الأمر ، فلما أفهمها أغراضه قبلت منه وأعانته ، وقد أعدّ له خاله أبو طاهر سفينة انحدرَ بها فى الفرات حتى بلغ القادسيّة[1] . وهناك لقيه عمالُ السلطان فاغتصبوا سفينته ، واضطرّوه إلى أن يسلك طريقًا مخوفةً إلى بغداد . فلما وصل إليها نظم قصيدة قدمها إلى أبى حامد الإسفراييني ، الذى قدّمنا ذكره يصف فيها سفره ، ويصوّر طريقه البرية إلى بغداد ، تصويرًا حسنًا ويذكر ظلم عمال السلطان له وجورهم عليه ، ويعرضُ على أبى حامد أخلاقه ويطلب مودّته ويستعينه على رَدّ سفينته إليه ، وفى هذه القصيدة يقول :

لا وضْعَ للرَّحل إلا بعدَ إيضاعِ ... فكيف شاهدتِ إمضائى وإزماعى
يا ناقُ جِدّى فقد أفنَتْ أناتُك بى ... صبرى وعُمرى وأحلامى وأنساعى

(١) ويقال الفارسية . انظر كتاب أبى العلاء وما إليه للميمنى ص ١١٠ .

إذا رأيتَ سوادَ الليلِ فانصلتي ... وإن رأيت بياضَ الصبحِ فانصاعي
ولا يهولنكِ سيفٌ للصباحِ بدا ... فإنه للهوادي غيرُ قطّاعِ
إلى الرئيسِ الذى إسفارُ طلعته ... فى حندسِ الخطبِ ساعٍ بالهدى شاعِ
يممتُه وبودّى أنّنى قلمٌ ... أسعى إليه ورأسى تحتيَ الساعى
على نجاةٍ من الفرصادِ أيّدها ... ربُّ القدومِ بأرصالٍ وأضلاعِ
تُطلى بقارٍ ولم تجربْ كأنْ طُليتْ ... بسائلٍ من ذفارى العيسِ منبّاعِ
ولا تُبالى بمحلٍ إن ألمّ بها ... ولا تهشُّ لإخصابٍ وإمراعِ
سارت فزارتْ بنا الأنبارَ سالمةً ... تزجى وتُدفعُ فى موجٍ ودفّاعِ
والقادسيّةَ أدتها إلى نفرٍ ... طافوا بها فأناخوها بجعجاعِ
وربَّ ظهرٍ وصلناها على عجلٍ ... بعصرها فى بعيدِ الوردِ لمّاعِ
بضربتين لظهرِ الوجهِ واحدةٌ ... وللذراعين أخرى ذاتُ إسراعِ
وكم قصرنا صلاةً غيرَ نافلةٍ ... فى مهمهٍ كصلاةِ الكسفِ شعشاعِ
وما جهرنا ولم يصدحْ مؤذّننا ... من خوفِ كلِّ طويلِ الرمحِ خدّاعِ
فى معشرٍ كجمارِ الرملِ أجمعُها ... ليلاً وفى الصبحِ ألقيها إلى القاعِ
يا حبّذا البدوُ حيثُ الضبُّ محترشٌ ... ومنزلٌ بينَ أجرعٍ وأجزاعِ
وغسلِ طمرّىَّ سبعًا من معاشرتى ... فى البيدِ كلَّ شجاعِ القلبِ شرّاعِ
وبالعراقِ رجالٌ قربهم شرفٌ ... هاجرتُ فى حبهم رهطى وأشياعى
على سنينَ تقضّتْ عندَ غيرهم ... أسيفتُ لا بلْ على الأيامِ والساعِ
اسمع أبا حامدٍ فُتيًا قُصدتْ بها ... من زائرٍ لجميلِ الودِّ مبتاعِ
مؤدَّبِ النفسِ أكّالٍ على سغبٍ ... لحمَ النوائبِ شرّابٍ بأنقاعِ
أرضى وأنصفُ إلا أننى ربّما ... أربيتُ غيرَ مجيزٍ خرقَ إجماعِ
وذاكَ أنىَ أعطى الوسقَ منتحيًا ... من المودةِ معطى الودِّ بالصاعِ
ولا أثقّلُ فى جاهٍ ولا نشبٍ ... ولو غدوتُ أخا عُدْمٍ وإقماعِ
من قالَ صادقْ لئامَ الناسِ قلتُ له ... قولَ ابن الأسلتِ قد أبلغتَ أسماعى
كأن كلَّ جواب أنتَ ذاكرُه ... شنفٌ يُناطُ بأذنِ السامعِ الواعى
إن الهدايا كراماتٌ لآخذها ... إن كنَّ لسْنَ لإسرافٍ وأطماعِ

ولا هديةَ عندى غيرُ ما حَمَلَتْ ... عن المسيَّب أرواحٌ لِقَعقاعِ
ولم أكنْ ورسولى حين أُرسِلُه ... مثل الفرزدقِ فى إرسالِ وَقَّاعِ
مَطِيتى فى مكان لستُ آمَنُهُ ... على المطايا وسِرْحانٌ له راعِ
فارفعْ بكَفَّى فإنى طائشٌ قدَمى ... وامدد بصَبْعى فإنى ضيِّقٌ باعِى
وما يكنْ فلك الحمدُ الجميلُ به ... وإن أضيعَتْ فإنى شاكرٌ داعِ

فانظُر إليه كيفَ بدأ قصيدتهُ بهذا المطلع ؛ الذى يمثلُ قوةَ عزيمتهِ وشدة شكيمتهِ ، وإن لم يشتملْ على معنى طريفٍ ولا على بدعٍ مما يقول الشعراءُ ، ثم انظر كيف أحسنَ مداعبةَ ناقتهِ ، وحثها على السيرِ فى قوله :

ولا يهولَنْكِ سيفٌ للصباحِ بدَا ... فإنه للهَوادِى غيرُ قطاعِ

ثم أخذَ فى ذكر سفينتهِ وانحدارها فى الفراتِ ، وجور العمالِ عليه عند القادسية متلطفًا فى الوصفِ ، متخيرًا فرائدَ اللفظ . وإذ كان إنما قدم هذه القصيدةَ إلى فقيه فقد أحسن الإحسان كلَّه ، حين خاطبهُ فى وصف سفره البريِّ باصطلاحِ الفقهاء ، فذكر ما يلزمُ السفر البعيدَ فى الصحراء من قصر الصلاةِ والتيمم ، والجمع بين الفريضتين ، ثم انظُر إبداعه فى ذلك إذ كنى عن عددِ رفاقهِ ، وعن سراهم بالليل وتفرقهم بالنهارِ ، بما يفعلُ الحاجُّ إذ يجمع حصا الجمار ليلةَ المزدلفةِ ، ثم يفرّقها إذا أصبحَ . وانظُر إلى تلطفهِ فى عرض حاله على الفقيه ، فى صورة فتوى ، وتعريضه بأنه يجزِى المحسنَ إليه أضعافَ إحسانه ، فيصطنع الرِّبا من غير أن يخالف إجماع المسلمين على تحريمهِ ، وهو فى كلِّ ذلك لا ينسى نفسَه ، ولا يغفُلُ عن تسطير أخلاقه وتعديد شمائلهِ ، والفخر بأنه لا يلجأ إلى الناس فى اتقاء الفقر والتماس القوت ، وانظر كيف عرض حاجتَه فى استرداد السَّفينة على الشيخ بأعذب لفظٍ ، وأرقِّ لهجة ، وأحلى أسلوب وكيف جمع بين الاعتراف بالضعف ، والافتخار بعزة النفس ، وكيف أعفَى ممدوحَه من الإلحاح ، وجزاه على النجح حمدًا وثناءً ، وعلى الإخفاق شكرًا ودعاءً ، فلم يكله إلى الندم إن قصر ، ولم يؤسه من الثَّواب إن اجتهد . . . كل ذلك فى لفظ متين ، وأسلوب رصين قلما عثرت فيه بكلمة نابية ، أو تركيب فجّ أو معرض خلق ، وقلما صادفت فيه لغوًا فى المدحِ أو إسرافًا فى الخشوع .

على أن هذه القصيدة لم تلق عضداً من أبى حامد ، فلم يرد سفينة الشاعر عليه لأمر لم يفصله التاريخ .

وما نظن إلا أن الرجل قد اجتهد فأصابه الإخفاقُ ، وجدّ غيره فى حاجة أبى العلاء فقضاها ، وهو رجل يعرف بأبى أحمد الحكارى .

وقد شكرَ أبو العلاء هذه النعمة لآل حكار ، بعد احتجابه بمعرّة النعمان فى قصيدة جميلة ، بعثَ بها إلى صديقه خازن دار العلم ببغداد وفيها يقول :

وعنْ آلِ حَكّار جرَى سَمَرَ العُلا ... بأكملِ معنًى لا انتقاصٌ ولا غَمْطُ
فإن يُنسِهِم أمرَ السفينةِ فَضلُهمْ ... فليس بِمُنْسِيَّ الفراقُ ولا الشَّحْط
أولئك إن يقصُرْ بك الجاهُ ينهَضوا ... بجاهٍ وإنْ يُبخَلْ بنائلةٍ يُعطُوا

وهذه الأبيات وما بعدها ، تمثل اعتراف الرجل بالجميل ، وشكره للصنيعة أحسن تمثيل .

كيف عرفه الناس ببغداد

لا يحدثنا التاريخ بشىء مفصل عن دخول أبى العلاء بغداد ، وعن لقاء الناس له ، واحتفالهم به . ولكن الرجل قد كان له شىءٌ من الشهرة سبقه إلى العراق ، ولعل قصيدته التى ساقها إلى أبى حامد لفتت الناس إليه . وكان دخول رجل من أهل العلم مدينة بغداد خبراً لا يكاد يعلمه الناس ، حتى ينسلوا إلى زائرهم من كل وجه ليهدوا إليه الكرامة ، وليختبروه ويبتلوا علمه . فلا شكّ أنهم سعَوا إلى أبى العلاء ، فلما جالسوه وناقلوه القول فى فنون الأدب ، بهرهم منه علمٌ جمٌ وفضل كثير ، فرحبوا به ، وخلطوه بأنفسهم ، كما قال أبو العلاء فى إحدى رسائله إلى خاله أبى القاسم ، بعد رجوعه إلى المعرة : « ورعاية الله شاملة لمن عرفته ببغداد ، فقد أفردونى بحسن المعاملة ، وأثنَوْا على فى الغيبة ، وأكرمونى دون النظراء والطبقة » . وقد روى ابن خلكان عن الحافظ السلفىّ عن القاضى أبى الطيب طاهر بن عبد الله قال : كتبتُ إلى أبى العلاء المعرىّ الأديب ، حين وافى بغداد ، وكان قد نزل فى سُويقة غالب :

وما ذات درٍّ لا يحلُّ لحالب ... تناوُله واللحمُ منها محلَّل
لمنْ شاء فِي الحالين حيًّا وميتًا ... ومنْ رامَ شُربَ الضرِّ فهو مُضَلَّل
إذا طعنت فى السنِّ فاللحمُ طيبٌ ... وآكلهُ عنـدَ الجميع مفضَّل
وخِرْفانهـا للأكل فيهـا كزازةٌ ... فما لحصيفِ الرأى فيهنَّ مأكلُ
وَما يَجْتَنِي مَعْنَاه إلا مُبرِّزٌ ... عليمٌ بأسرارِ القلوبِ محصلُ

فأجابنى وأملى على الرسولِ فى الحال :

جوابان عنْ هذا السؤال كلاهما ... صوابٌ وَبعضُ القائلينَ مضلِّلُ
فمن ظنَّه كرمًا فليس بكاذب ... ومَن ظنَّه بخلاً فليسَ يجهـل
لُحُومهما الأعنابُ والرُّطَب الذى ... هو الحلُّ والدرُّ الرحيقُ المسلسَلُ
ولكن ثِمار النخْل وهى غَضيضةٌ ... ثمر وغضُّ الكرمِ يجنَى ويؤكلُ
يُكلفنى القاضى الجليلُ مسائلاً ... هى النجم قدرًا بل أعزُّ وأطـولُ
ولو لم أجِبْ عنها لكنتُ بجهلها ... جديرًا ولكن من يودك مقبلُ

فأجبته عنه وقلت :

أنار ضميرى من يعـز نظيره ... من الناس طرًّا سابغ الفضل مكملُ
ومن قلبه كُتب العـلوم بأسرهـا ... وخاطره فى حِدَّة النـارِ مُشعلُ
تساوَى له سرُّ المعانِى وجهرُهـا ... ومعضلُهـا باد عَلَيـه مفصَّلُ
ولمَّا أثارَ الحبَّ قـاد منيعَة ... أسيرًا بأنواعِ البيـانِ مكبَّلُ
وقربه من كل فهـم بكشفه ... وإيضاحه حتَّى رآه المغفـلُ
وأعجب منه نظمه الدر مسرعًا ... ومرتجلاً منْ غيرِ ما يتمهَّلُ
فيخرج من بحر ويسمو مكانه ... جلالاً إلى حيث الكواكبُ تنزلُ
فهنأه اللهُ الكريمُ بفضـله ... محاسـنه والعمـرُ فيها مطوَّلُ

فأجاب مرتجلاً وأملى على الرسول :

ألا أيها القاضِى الذى بدهائه ... سيوفٌ على أهلِ الخلافِ تسلَّلُ
فزادُك معمورٌ منَ العِلم آهلٌ ... وجدُّكَ فى كلِّ المسائلِ مقبلُ
فإن كنتَ بينَ الناسِ غيرَ ممول ... فأنتَ منَ الفهْمِ المصُونِ ممولُ
إذا أنتَ خاطبتَ الخصومَ مُجادلاً ... فأنتَ وهم مثْلُ الحمائمِ أجْدلُ

كأنكَ من فى الشّافعى مخاطبٌ ... ومن قلبه تُملِى فما تتمهّلُ
وكيف يُرى علمُ ابنِ إدريس دارسًا ... وأنتَ بإيضاحِ الهدَى متكفلُ
تفضلت حتى ضاق ذرعى بشكر ما ... فعلتَ وكفّى عن جوابك أجملُ
فعذرُك فى أنى أجبتك واثقًا ... بفضلكَ فالإنسانُ يسهو ويذهلُ
وأخطأت فى إنفاذ رقعتك التى ... همى المجدُ لى مِنها أخيرًا وأولُ
ولكنْ عذانى أن أرومَ احتفاظها ... رسولكَ وهوَ الفاضلُ المتفضلُ
ومن حقها أن يصبحَ المسكُ عاطرًا ... بها وهى فى أعلَى المواضع تجعلُ
فمن كانَ فى أشعارِه مُتمثّلاً ... فأنتَ امرؤٌ فى العلمِ والشعرِ أمثلُ
تجمّلتِ الدنيا بأنكَ فوقها ... ومِثلُكَ حقًا مَن به تتكملُ

فهذه المحاجاةُ الفقهيةُ التى أظهرت إتقانَ أبى العلاء لدرس الفقهِ كما أظهرت سرعةَ بديهتهِ ، وإن خلت من الحقيقة الشعرية ، إنما كانت من غير شكّ حين ظهر القاضى على القصيدة التى بعثَ بها أبو العلاء إلى الإسفراييني ، ورأى الشاعر قد تعرّض فيها للفقهِ وأحكامهِ ، فأحبَّ أن يختبرَه ويمتحنَه ، ولا شكَّ فى أن إسفارَ هذا الامتحانِ ، عن نجاح الشاعرِ قد حبّبه إلى طائفة كبيرة من الفقهاء . وقد قصَّ أبو العلاء فى رسالته إلى خاله أبى القاسم ، أن خالَه أبا طاهر ، قد أرسلَ كثيرًا من الكتُب إلى أصدقائهِ ببغدادَ يوصيهم به ، فكانوا كلّما عرضت له حاجةٌ أحبوا قضاءها ، فأبى عليهم إيمانًا بقول زهير :

ومَنْ لا يزلْ يستحْمل النّاس نفسه ... ولا يُعفهـا يومًا مِنَ الذّمِّ يسأم

فهذا كله قد عرّف أبا العلاء إلى الناسِ ، وجمعهم حوله بمدينةِ السلامِ .

حياته العلمية والأدبية ببغداد

لن تظفرَ من التاريخ بشيء إنْ أردت أن تسأله ، كيف كان أبو العلاء يدرس العلم ببغداد . ولكن مما لا شكَّ فيه ، أنه لم يجلس مجلسَ التلميذِ من أحد ، وإنما كانَ يسعى إلى دروسِ العلماء ومجالسهم ، كما يسعَى الندُّ إلى الندِّ ،

والنظيرُ إلى النظيرِ . وقد حدَّثنا أبو العلاء عن نفسه ، أنه منذ بلغ العشرينَ لم يحتجْ إلى أن يطلبَ العلم من أحدٍ فى العراق ولا فى الشام .

وروى المؤرخُون أن أهل بغدادَ قرءوا على أبى العلاء ديوانَه سقط الزند ، وهو خبرٌ يحتاج إلى شىء من الروية ، فإنَّ سقط الزّندِ لم يُجمع ولم يصر كتابًا ، إلا بعد رجوع صاحبه من بغدادَ ، وفى هذا الديوانِ قصائدُ هنَّ الجيادُ الغرُّ ، لم ينظمهنَّ الشاعرُ إلا فى عزلتهِ كرثائه لأمه ، وكالقصائد التى بعث بها إلى أهل العراقِ ، فلعلَّ البغداديين قد روَوْا عنه ما كان قد نظمَ من الشعر فى شبيبته ، وليس ذلك بالشىء الكثير . فمن الميسورِ أن نحكم بأن أبا العلاء ، لم يكن فى بغدادَ أستاذًا ولا تلميذًا . على أنه إنما رحل لأمورٍ منها الدرس ، فلا ريب فى أنه قد زار المكتبتين اللتين قدَّمنا ذكرهما . وقد أشار المؤرخُون إلى زيارته مكتبةً كانت فى يدِ عبد السلام بنِ الحسين البصرى ، ونظنها مكتبة سابور بن أردشير ، التى أنشأها بين السورين سنة إحدى وثمانينَ وثلثمائة ، وهى التى يسميها أبو العلاء فى ديوان سقطِ الزند دارَ العلم .

قال القفطىُّ والذهبىُّ : فعرض عليه عبدُ السلام ما فى مكتبته من الكتُبِ ، فلم يرَ فيها شيئًا غريبًا ؛ إذ كان قد قرأها كلَّها بطرابلس[1] ، إلا ديوان تيم اللاَّت فاستعارهُ منه ، وسافر إلى المعرَّة وهو معهُ فردَّه إليه مع القصيدة المشهورة التى مطلعُها :

هَاتِ الحديثَ عَنِ الزَّوراء أوْهِيتَا ومَوْقَدِ النَّارِ لاَ تَكْرَى بِتَكْرِيتَا

وهذا الخبرُ خطأٌ من غيرِ شكٍّ ، يكذبه سقط الزند نفسُه ، فإنَّ أبا العلاءِ ، إنما استعارَ تيم اللات من صاحبه وتلميذه أبى القاسمِ التنُوخى القاضى ، ولم يأخذ الكتابَ معه إلى المعرةِ ، وإنما تركه عندَ عبد السلام وأوصاهُ أن يردَّه إلى صاحبه . فلما وصلَ إلى المعرَّةِ وأشفقَ أن يكونَ عبد السَّلام قد نسىَ أمر هذا الكتابِ ، نظمَ هذه القصيدة وبعثَ بها إلى أبى القاسم يقصُّ عليه القصة ، لا إلى عبد السلام وفيها يقول :

أهدى السلامَ إلى عبد السلام فَمَا يَزَالُ قَلْبِى إليهِ الدهْرَ مَلْفوتَا

---

(١) انظر صفحة ١٤٧ من الذكرى .

سألتهُ قبلَ يومِ السَّيرِ مَبْعثه إليكَ ديوانَ تيمِ اللاَّتِ ماليتا
هذا لتعلمَ أنى ما نهضْتُ إلى قضاءِ حجّ فأغفلتُ المواقيتا

فأنت ترى أن القفطيَّ والذهبي قد كتبا هذا الخبر من غير تثبت ولا أناة ، وكأنهما لم يستوفيا درس سقط الزند ، ومهما يكن من غموضِ التاريخ فى شأنِ أبى العلاء ببغداد ، فإنه قد دخلَ مكاتبها وقرأ ما فيها من كتب الفلسفةِ والحكمة ، ومن دواوين الأدب واللغة ، وعرَف العلماءَ ، وحضر مجالس درسهم ومناظراتهم ، واشترك فى المجامع العلمية والأدبية العامة والخاصة ، فكان يحضُر مجمعَ سابور بن أردشير وفيه يقول :

وغنَّت لنا فى دارِ سابورَ قينةٌ من الورق مطراب الأصائل ميهال

وكذلك كان يحضُر المجمع الخاص الفلسفيَّ الذى كان يأتلفُ يوم الجمعة بدار عبد السلام البصرى ، وفيه يقول من قصيدة بعث بها إليه :

تهيجُ أشواقى عروبة أنها إليك ذوتنى عن حضُور بمجْمع

وكأنَّه هذا المجمع السرى ، الذى أسماه إخوان الصفاء ، لشيوعِ هذا اللفظِ بين المسلمين فى ذلك العصر ، ودلالته الخاصة على جماعة فلسفيَّة تشترك فى الأغراض والآراء ، وذلك حيث يقول :

كَم ببلدةٍ فارقتُهَا ومعاشر يذرُون من أسفٍ على دموعا
وإذا أضاعتْنى الخطوبُ فلن أرَى لودادِ إخوانِ الصَّفاء مضيعا
خاللت توديعَ الأصادقِ للنوَى فمتى أودّع خلى التَّوديعا

وكان يحضرُ مجمع الشريف المرتضى ، وسيأتى لذلك ذكرٌ خاص . قال مرجليوثُ وسلمون : وكما كان الشعراء فى رومية القديمة ، ينشدون الجمهورَ أشعارَهم فى الميادين العامة ، كان شعراءُ بغداد ينشدون قصائدهم فى مسجد المنصور .

ولسنا ننكرُ عليهما ما قالا . وإنما ننكرُ أن يكون الشعراءُ قد ورثوا هذه العادةَ من غيرهم من الأمم . فما زالوا يتناشدون أشعارَهم بملأ من الناس فى جاهليتهم وإسلامهم ، وفى بداوتهم وحضارتهم . ومن الإطالة التى لا خير فيها أن نتعرَّض لإثبات ذلك بالبرهان . وقد كان أبو العلاء يحضُرُ هذه المجالس الشعرية بمسجد

المنصور ، ولعلّه كان ينشُد أشعاره فيه . فهذا يدلُّ على أن أبا العلاء لم يترك بيتًا من بيوت العلم ببغداد إلا ولجَه ، ولا مجلسًا من مجالس الأدب إلا حضره . ولا بيئةً من بيئات الفلسفة إلا اشترك فيها . ومن الواضح تأثيرُ ذلك كله فى حياته العقلية والخلقية . والذى يدرسُ تاريخ هذا العصر يعرف أن الصلة قد اشتدّت فيه بين المسلمين وبلاد الهند بما كان لمحمود بن سبكتكين فيها من بُعد الأثر وكثرة الفتوح .

فلا جَرَمَ كثُرت صلاتُ أهل الهند ببغداد ، وانتشرت عروضهم وتجارتُهم بالعراق فوفد الوافدون منهم على مدينة السلام ، وانتقلت معهم آراؤُهم ومقالاتهم الدينيةُ والفلسفيةُ .

ولعل ما كتب البيرونى ، الذى عاصرَ أبا العلاء عن الهند ، قد وصلَ إلى بغدادَ . ومن هنا نستطيعُ أن نجزمَ بأن الصلةَ الظاهرة بين الفلسفة الهندية ، وعقول المسلمين لم تكن إلا فى هذا العصر .

فلنذكر هذه القضيةَ فإنها ستفيدُنا عند البحث عن فلسفة أبى العلاء .

إخفاقه فى بغداد

قدّمنا أن الشاعرَ إنما رحلَ إلى العراق يلتمسُ الشهرة وخفض العيش ، ويفرُّ من الحياة السياسية السيئة بحلب . فأما الشهرةُ فقد ظفر بها إذ لم يبق من أدباء بغداد وعلمائها وفقهائها من لم يعرفْه ولم يعجبْ به . وأما الدعةُ السياسيةُ وخفضُ العيش فلم يوفَّقْ إليهما ؛ ذلك أنَّ حال العراق لم تكن خيرًا من حال الشام ، ولا سيّما فى عهد أبى العلاء ببغدادَ فإن بهاءَ الدولة الذى كان يملكها حينئذ ، لم يكن ذلك الملكَ القويَّ الحازم ، بل كان ضعيفًا عاجزًا ، فانتقضَت عليه الأمورُ غير مرة وكذلك لم يُتح لأبى العلاء من الثراء ما كان يريدُ ؛ فإن تشدده فى العفة وإباءَه التكسّب بالشعر ، وامتناعَه عن سؤال الناس ، وضنَّه بكرامة نفسه جعل وصوله إلى الثراء أمرًا لا سبيلَ إليه ، فهو لا يمدحُ ملكًا ولا وزيرًا ،

ولا يقبلُ هبةً ولا عطية ، والعلمُ ببغداد أكثرُ وأرخصُ من أن يُنفقَ فى تحصيله المالُ . فوقَ هذا كله لم يسلم أبو العلاء من حسد الحسَّاد ، وحقد الحاقدين ، وخليقٌ بمثله أن يكون محسوداً . ثم لم يسلم من أن يتلقَّاه بعض الناس بما يكره ، إما لخطأ منه ، أو لحسد من خصومه ، فأما الأولُ فقصتهُ مع الشريف المرتضى ، ذلك أن الصلة بينه وبين هذه الأسرة كانت متينةً قويةً ، حتى رثى أبا أحمدَ والد الرضى والمرتضى ، حينَ مات فى جمادَى سنة أربعمائة ، ولكنَّه حضر مجلسَ المرتضى بعد ذلك ، فجرى ذكرُ المتنبى ، وكان المرتضى يكرههُ ويتعصَّب عليه ، وكان أبو العلاء يحبه ويتعصب له ، فانتقصهُ المرتضى وأخذ يتتبَّع عيوبَه ، فقال أبو العلاء لو لم يكن له إلا قولهُ : « لكِ يا منازلُ فى القلوب منازلُ » ، لكفاه . فغضب المرتضى وأمرَ بإخراجه . ثم قال المؤرخُون فسحب برجله حتى أخرجَ ، ثم قال المرتضى لمن حضره : أتدرون لم اختار الأعمى هذه القصيدةَ دون غيرها من غرر المتنبى ؟ قالوا : لا . قال : إنما عرَّض بقوله :

وإذا أتتكَ مذمَّتى من ناقص فهى الشـــهادةُ لى بأنى كاملُ

ليس يهمنا أن ندل على ما تمثل هذه القصةُ من حذقِ أبى العلاء فى التعريض ، وقوةِ المرتضى فى الفَهم ، فمثل ذلكَ لم يكن نادراً فى تلك الأيام ، وإنما يعنينا أن نلفت القارئَ إلى ما يمكنُ أن تترك هذه الحادثةُ فى نفس رجل مكفوف نادرِ الذكاء ، غزير المادة ، قليل التصبر ، قويِّ الحسِّ ، كأبى العلاء. ولولا أن التعصبَ للمتنبى قد كلَّفه الإساءة إلى رجل يحبّه ويجله لما أصابه من ذلك شىءٌ .

ومن الظاهر أن عداوة أسرةٍ كأسرة المرتضى ، ليست بالشىء الهيِّن مع أنها كانت تناصى أسرة الخلافة وتماثلها فى السلطان .

وأما الثانى وهو الحسدُ فقصتُه مع أبى الحسن على بن عيسى الربعىِّ النحوىِّ ، وكان أبو العلاء قد ذهب إليه ، فلما استأذن قال أبو الحسن ليصعد الإصطبلُ ، أى الأعمى فى لغة أهل الشام ، كما قال ياقوت ، فلما سمعها أبو العلاء انصرف مغضباً ولم يعُدْ إلى أبى الحسن مرةً أخرَى . فما نشك فى أن أبا الحسن إنما قصد إيذاء زائرِه حين قال هذه الكلمةَ بمسمع منهُ ، وما نرتابُ فى أن الحسد هو

الذى أنطقه بها ، والذى يعنينا هنا أيضًا إنما هو لفت القارئ إلى تقدير الموقع الذى تقعه هذه الكلمةُ من نفس أبى العلاء .

ليس لنا أن نلومَ فى ذلك أحدًا ؛ فإن أبا العلاء لم يختر أن يكون متعصبًا للمتنبى وشديدًا على المرتضى ، كما أن هذا لم يختر أن يكون متعصبًا عليه ، ومهينًا لمادحه وراثى أبيه . وما اختارَ أبو العلاء أن يكون محسدًا ، ولا ابتغَى أبو الحسن أن يكون حاسدًا ، وما آثر أبو العلاء أن يكون رقيقَ الإحساس دقيق الشعور ، عزيز النفس ، أصيد الجيد ، وإنما كل تلك خصال قهريةٌ اجتمعت لإزعاج أبى العلاء عن بغداد ، وانضمَّ إليها خبرٌ جاءه من معرة النعمان ، ينبئهُ بمرض أمه ، فاضطر إلى أن يرجعَ أدراجَه بعد أن أقام ببغداد سنة وسبعة أشهر .

رجوعه من بغداد

يحدّثنا أبو العلاء أن سببين اثنين صرفاه عن مدينة السلام ، وقد كان عازمًا على أن يقيم فيها آخر الدهر . أحدهما الفقرُ والآخر مرضُ أمه ، وذلك حيث يقول قصيدته التى بعث بها إلى أبى القاسم التّنُوخى :

أثارَنى عَنْكم أمرَانِ : والدةٌ ... لم ألقَهَا ، وثَرَاءٌ عاد مسفُوتَا
أحيَاهما اللهُ عَصْرَ البَيْنِ ثمَّ قَضى ... قبلَ الإياب إلَى الذُّخْرين أنْ موتَا
لولا رجاءُ لِقائيها لَما تَبِعَتْ ... عَنْسِي دليلاً كَسِرِّ الغِمْد إصْليتَا

وقد طوَى أبو العلاء عنّا فى شعره ونثره ذكرما لَقِى من المرتَضِى وأبى الحسن ، ولكن التاريخ قد حفظَ لنا ذلك فأعاننا على فهم ما نقلناهُ فى اللزوميات ، من ذمِّ أهل بغداد أحيانًا كقوله :

مالِى وللنَّفرِ الَّذين عَهِدتُهم ... بالكرخِ من شَاس ومنْ إيلاَق
حلق ذلة كشرْبِ مهلهِـــل ... شربُوا على رَغْم بكأسِ حلاق

فلولا أن أبا العلاء قد لقَى من هؤلاء شرًّا لما ذمهم على كثرة ما سنرى بعد حينٍ من مدحه بغداد ، وثنائه على أهلها فى اللزوميات وسقط الزند والرسائل .

ولئن كانت مغالاتهُ بنفسه قد كلفته نسيانَ هذه المساءاتِ ، فإن رقةَ حسّه وشدة تأثره ، قد أنطقته عفواً فى هذين البيتين .

ارتحلَ عن بغدادَ لستّ بقين من رمضان سنة أربعمائة ، كما تنطق بذلكَ رسالتُه إلى خاله أبى القاسم ، فسلك طريق الموصلِ ، ولقى فيه ألوانًا من الخوفِ حتى انتهى إلى بلدِه .

احتفال أهل بغداد بوداعه وحزنهم لسفره

ويحدثُنا أبو العلاء فى هذه الرسالةِ وغيرها ، أنَّ أهلَ بغداد لم يسمعوا بعزمه على السفر حتى ارتاعوا له ، وألحوا فى نهيه عنه ، وبذلوا له الأموالَ ، ورغبوه فى ألوان النعمة ، فأبى ذلك كله ، وكأن نفسه قد انصرفت عن الدنيا أتمَّ الانصرافِ فلم يبقَ إلا أن يمضىَ لما أراد من العزلةِ .

حزنه على بغداد

لقد كان أبو العلاء حين زار العراق ، شديد الحزنِ على المعرَّة لا يسلّيه عنها الكرخُ وما فيه من ماءٍ عذب ، وظل ظليل ، ومن علم جمّ ، وأدب غضّ ، ومن كل ما يشتهى الإنسانُ للذّات نفسه وجسمه ، وكان بعدُه من أهلهِ ، وإصفارُ يده من المالِ ، وعزةُ نفسه عن سؤال الناس ، تضاعفُ فى قلبه هذا الحزنَ ، وتذكى فى نفسه هذا الأسى . فأنشأ فى ذلك قصيدتين من خيرِ ما حوَى سقط الزند ؛ وما نشكُّ فى أنهما قد زادتا رفعةَ قدره فى العراق ، حتى إنَّ بيتًا من إحداهما ، جرَى على ألسنةِ الظرفاء ببغدادَ من الفتيانِ والفتياتِ مجرى الأمثالِ فقد روَى ياقوت أن رجلاً خرج ببغداد على سبيل (الفرجة) — كما يقولُ — فجلسَ على الجسرِ فمرت امرأةٌ حسناء ، لقيها شابٌّ ظريفٌ ، فقال :

رحم الله على بن الجهم . قالت : رحم الله أبا العلاء . ومضى كلٌّ منهما لوجه . قال الرجلُ فتبعتُ المرأة أسألها عن شيء سمعتُه ولم أفهمه ، فأجابت : أراد قول على بن الجهم :

عُيون المهَا بينَ الرّصافةِ والجِسْرِ جَلَبْنَ الهوَى من حيثُ أدرى ولا أدرِى

وأردتُ قول أبى العلاء :

فيا دارَها بالحزنِ إن مزارَهـا قريبٌ ولكن دُونَ ذلك أهوَالُ

فهذه القصةُ تمثلُ كلف الناس بهذه القصيدة لأبى العلاء . وليست القصيدة الأخرى لأبى العلاء بأقلَّ منها نضجًا ومتانة ، ودقة مضى . يقول فى الأولى :

وكَمْ هَمّ نِضْو أن يَطيرَ معَ الصبَا إلى الشّام لولا حَبسُـه بعقَـالِ

ويقول :

فيا بَرقُ ليسَ الكرخُ دَارِى وإنّما رَمانى إليه الدَّهرُ منـذُ لَيَالِى
فهل فيكَ من ماء المعرَّة قطرةٌ تُغيثُ بها ظمآنَ ليس بسَـالِ

ولنلاحظ أن ماءَ المعرَّة الذى يتمنّاه ، ويتشوّق إليه ، إنما هو ماءُ آبارٍ لا يقاسُ إلى ما فى دجلَة من عذبٍ سلسبيل ، ويقول :

أإخوانَنا بينَ الفُراتِ وجِلّقٍ يَدَ اللهِ لا أخـبرتكم بمَحالِ
أنَبّئكم أنى على العهـدِ سالمٌ ووجهِىَ لمّا يُبتذَلْ بسُؤالِ
وأنى تَيَمّمْتُ العـراقَ لغيرِ ما تيَمّمَـه غيْـلانُ عنـدَ بِلالِ
فأصبحتُ محسودًا بفضلِىَ وحدَه على بُعْدِ أنصارِى وقلةِ مَـالِى
نَدِمْتُ على أرضِ العواصِمِ بعدَما غدَوتُ بها فى السَّوم غيرَ مُغالِ

ويقول فى الثانية :

تمنيتُ أن الخمرَ حَلّت لنشـوة تُجَهّلُنى كيف اطمأنّت بى الحانُ
فأذهلُ أنى بالعراق على شـفًا رذِىُّ الأمانى لا أنيس ولا مالُ
مُقِلٌّ من الأهلِين يُسر وأسرة كَنَى حزنًا بَيْنٌ مُشِتٌّ وإقلالُ

ويقول :

متَى سألَتْ بَغدادُ عنى وأهلُها فإنِّىَ عن أهلِ العواصِمِ سَنّال

ويقول :

وماءُ بلادى كانَ أنجعَ مَشْرَبًا ولو أنَّ ماءَ الكَرخِ صَهباءُ جِرْيال

ويقول :

فيا وطَنَى إن فاتنى بكَ سابقٌ من الدهرِ فلْيَنْعَمْ لِساكِنِكَ البالُ

ويقول :

وكم ماجدٍ فى سيفِ دِجلَةَ لم أشِمْ له بارقًا والمرءُ كالمزْنِ هطّالُ

ويقول :

سيَطلبُنى رزقى الذى لو طلبتُهُ لَما زَاد والدنيا حُظوظٌ وإقبال

فهذا الحزن الشديد الذى يصل بين نفس الشاعر وبين وطنه القديم ، لم يمنعه أن يحزنَ على بغداد حين فارقَها حزنًا أشدَّ منه أثرًا فى النفس، وأبقى منه ندوبًا فى القلبِ ، حزنًا لزمَه طولَ حياته ، ولم تسلِّه عنه فلسفتُه ولا حكمتُه ولم يُرِحه منه استهزاؤه بالدنيا ، واطمئنانه إلى أحكام القضاء ، بل نطق به نثرُه ونظمُه ، وظهرَ فى شعره الفلسفىِّ ، فقال فى اللزوميات :

يا لهفَ نفسى عَلَى أنى رجعْتُ إلى هذى البلادِ ولم أهلكْ ببغداذَا
إذا رأيتُ أمورًا لا توافقِنى قلتُ الإيابُ إلى الأوطانِ أدَّى ذَا

وانظر كيف استبقَى حزنه على بغداد ، مع اعتقاده أنهُ لم يُفد منها دينًا ولا دُنيا ، فقال :

رحلتُ فلا دنيا ولا دينَ نلتُه وما أوبتِى إلاّ السَّفاهة والحرق

وليس أبو العلاء وحدَه الذى فارقَ بغدادَ فلزمَه الندمُ عليها طولَ حياته، بل هناكَ قوم يحصيهم التاريخ فارقوا بغداد كارهين ، فبكوْها أمرَّ بكاء .

حتى إنَّنا لنستطيعُ أن نؤلف سفرًا خاصًّا ممتعًا فى الآداب ، لا يحتوى إلا على ماقال الكتَّاب والشعراءُ ، فى الحزن لفراقِ بغدادَ . من هؤلاء الذين جزِعوا لفراقِ بغدادَ ، القاضى أبو محمد عبد الوهاب بن على بن نصر المالكى ، فقد

نبّا به المقامُ ببغداد كما نبا بأبى العلاء ، فخرج يريدُ مصرَ وخرجَ معه أهلُها يودعونه ، فأخذوا يتوجعون لفراقه فقال : والله لو وجدتُ عندكم فى كلِّ يومٍ مدًّا من الباقلا ما فارقتكم ثم أنشد :

سلامٌ على بغدادَ من كلِّ منزل ... وحقَّ لها منى السلام المضاعفُ
فوالله ما فارقتُها عن قِلًى لها ... وإنى بشطَّى جانبيها لعارفُ
ولكنها ضاقتْ علىَّ برحْبها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعفُ
وكانت كخِلٍّ كنت أهوَى دنوّه ... وأخلاقه تنأى به وتخالفُ

وإنما آثرنا هذا الرجلَ من بين الذين فُجِعُوا بفراقِ مدينة السَّلامِ ، لأنه مرَّ فى طريقه إلى مصرَ ، بمعرةِ النعمانِ فضيفه أبو العلاءِ ، وأكرمه ، وفى ذلك يقول :

والمالكى بنُ نصر زارَ فى سفر ... بلادنا فحمدنا النأىَ والسفرَا
إذا تفقَّه أحيا مالكًا جدلاً ... وينشرُ الملك الضِّليل إن شعرَا

قال ياقوت : وقد وجد مكتوبًا على حائط فى جزيرةِ قبرصَ :

فهل نحوَ بغداد مزارٌ فيلتقى ... مشوقٌ ويحظَى بالزيارة زائر
إلى الله أشكو لا إلى الناس إنه ... على كشف ما ألقى من الهم قادر

وكأنَّ بغداد فى ذلك العصرِ ، كانت تفيض منها تلك العينُ القصصية التى لا يشربُ منها شاربٌ إلا كلف بقربها .

نعم لقد كانَ فيها ذلك المورِدُ العذب ، وهو مورد العلم الذى وصفه أبو العلاء فقال فى رسالته إلى خاله أبى القاسم : « ووجدتُ العلمَ ببغدادَ أكثرَ من الحصى عند جمْرة العقبةِ ، وأرخص من الصيحانى بالجابرة ، وأمكن من الماء بخضارة . وأقرب من الجريد باليمامةِ ، ولكن على كل خبر مانع ، ودونَ كلِّ درة خرساء موحية أو خضراء طامية .

إذا لم تستطعْ شيئًا فدعْه ... وجاوزْه إلى ما تستطيع »

من هُنا نفهمُ السببَ الذى أنطقَ أبا العلاء من الشِّعر والنثرِ فى الحزن على

بغداد ، بما استغرق من دواوينه ورسائله حظًّا غير قليل ، فمن ذلك وداعُه لها حين فارقَها ، وهى قصيدةٌ جيدةٌ فى سقط الزند يقولُ فيها :

نبيٌّ من الغربانِ ليس على شَرْعِ ... يُخبِّرُنا أن الشعوبَ إلى الصَّدْعِ
أصدّقه فى مريةٍ وقد امترَتْ ... صحابة موسَى بعد آياتِه التِّسعِ

ويقول :

أودّعُكمْ يا أهلَ بغدادَ والحشَا ... على زَفَرات مايَنِينَ منَ اللَّذْعِ
وداعَ ضَنًى لم يستقِلَّ وإنما ... تحامَلَ من بعدِ العِثارِ على ظَلَع

ويقول :

فبئسَ البديلُ الشأمُ عنكم وأهلهُ ... عَلَى أنَّهمْ قومِى وبَينهمُ ربعِى
ألاَ زوّدُونى شَرْبةً ولوَ انَّنِى ... قدَرْتُ إذا أفنيتُ دِجلة بالجَرْعِ
وأنَّى لنا من ماء دِجلةَ نغبَةٌ ... على الخِمْسِ من بُعْدِ المفاوزِ والربْعِ

ويقول :

أدرْتمْ مَقالاً فى الجِدالِ بألْسُن ... خُلِقْنَ فَجَانَبْنَ المَضَرَّةَ للنَّفْعِ

ويقول :

أظنُّ الليالِى وهى خُونٌ غوادِرٌ ... بِرَدّى إلى بغدادَ ضَيقة الذَّرعِ
وكانَ اختيارِى أن أموتَ لديكمُ ... حميداً ، فما ألْفَيْتُ ذلك فى الوُسْعِ

ويقول :

فدُونكمُ خَفْضَ الحياةِ فإننا ... نَصَبْنا المطايا بالفلاةِ على القَطْعِ
تَعَجَّلْتُ إن لم أثْنِ جُهدِى عليكمُ ... سحابَ الرزايا وهى صائبة الوَقْعِ

ولو أنَّا ذهبنا نروى ما قال أبو العلاء فى الحزنِ على بغدادَ لطال بنا القول ؛ فليرجعْ إلى ذلك فيما نشرَ من شعره ونثره فهو كثير .

موتُ أمه

فى طريق أبى العلاء إلى المعرة ، بلغه نعىُ أمِّه ، فكان لوقعه فى نفسه من شديد الألم ولاذع الحزنِ ، ما أنطقه بقصيدتين مسطورتين فى سقط الزند ، وبكثير

من النثر المسطور فى الرسائل ، وتمّم لنفسه بناء هذا البيت المظلم من الحزن الذى لزمه بقية حياته .

لزمه فشل له الأشياء كلها سيئةً بشعة ، وملأ قلبه صدوفًا عن الدنيا ، وتزهداً فى ملاذّها ، بل مقتًا لها ، وسخطًا عليها .

لقد بدأتْ حياةُ أبى العلاء بالمصائب ، ففقد بصره ولما ينض ثوب الرابعة من عمره ، وفقد أباه ولما يعدُ الرابعة عشرة ، ولزمه أثقلُ الأصحاب ظلا وأسمجهم مظهرًا ، وأقبحهم جوارًا ، وهو الفقرُ وعثورُ الجدّ . فلما انحدرَ إلى بغداد لقيته الأيام بظلم عمّال السلطان له ، واعتدائهم على سفينته ، ثم قدمت إليه ببغدادَ كأسًا من الشهرة العلميّة ، مزاجُها اليأسُ من حسن المقام ، ثم أخلفه الأملُ وعده ونجّز إليه اليأسُ وعيدَه فشخصَ من بغداد كارهًا . وإنه لفى الطريق يسايره الحزنُ ، ويقوده الأسى ، ويحدو به الفشلُ ، وإذا النعىُ يلقاهُ بموت تلك التى كان يدّخرها سلوة عما جنت عليه الأيامُ : من عثور الجد ، وسوء الحال .

كان لهذا الخبر فى نفس أبى العلاء سورة عنيفةٌ ، بذل فيها آخرَ ما كان يملكُ من ثقة بالدهر ، واطمئنان إلى الأيام . ورسالتهُ إلى خاله أبى القاسم تمثلُ لنا هذه السورة أحسن تمثيل ، فانظُر كيف ابتدأها فقال : « كتابى أطال الله بقاء سيدى ماطلع صبيرٌ ورسا ثبيرٌ ، من معرَّة النعمان ، ولكل نبأ مستقرّ ، ووردتها بعد سآمة ورود كعب بن مامةَ ، فإنا لله وإنا إليه راجعونَ ، وله الحمد ممزوجًا به الدمعُ ، مستكنًّا له من الوجد السمعُ ، وصلى الله على سيدنا محمد وعترته صلاة يثقلُ بها لسانى حزنًا ، وترجح فى المحشر قدرًا ووزنًا » .

فلو أنَّ القارئَ استعانَ علم النفس فى فهم هذه الطالعة وتحليلها ، لظهر له أنها ليست إلا نسيجًا من تلك الزفرات الحارَّة التى كان يُصَعِّدُها أبو العلاء حين وصل إلى المعرة ، فافتقد من كان يرجو لقاءه ، ويحرصُ أشدَّ الحرصِ على وداعه والتزوُّدِ منه ، إن لم يكنْ من فراقه بدّ ، ولا عن بعده منصرَف .

نعم ، هى نسيجٌ من تلك الزفراتِ ، يشوبُها يأس قد أسخطَ أبا العلاءِ على

كل شيء ، حتى لم يرضَ أن يُسْدِيَ الحمدَ إلى ربِّه إلاَّ ممزوجًا بالعبرات المسفوحة ، من جفونه المقروحة ، ولم يقنعهُ ذلك حتى جعل هذا الحمدَ ثقيلاً على سمعه . ثم لم يشأ أن يصلِّيَ على النبيِّ حتى جعل الصلاةَ عليه عبئًا يثقلُ به لسانهُ ، وإن جاد به قلبه ، على أنَّ ما أتى فى الرسالة من تلك الجمل التى ليست فى الحقيقة إلا قطعًا من الجمر لذاعة للقلوب ، يمثِّل اضطراب نفسه وسورتها . فانظر إلى قوله بعد ذلك :

ألا يا ليتنى والمرءُ ميتٌ ... وما تغنى من الحدثان ليت
يا ليت عمرًا وليت ضلة سفه ... لم يغز فهما ولم يَحْلُلْ بواديها
لو أن صدورَ الأمرِ يبدون للفتى ... كأعقابه لم تلفه يتندَّم

رحمة الله من ساكنة رمسٍ ، أصبحت حياتك كأمسٍ .

فإن ينقطعْ منك الرجاء فإنه ... سيبقَى عليك الحزنُ ما بقى الدهرُ

ولا آمل بعدَها خيرًا ولا أزيدُ فى المحن إلا إيضاعًا وسيرًا .

صلَّى الإلهُ عليكِ من مفقودة ... إذ لا يلائمُك المكانُ البلقعُ
أنَّى حللت وكنتِ جِدَّ فَرُوقةٍ ... بلدًا يمرُّ به الشجاعُ فيفزعُ
لا بارك اللهُ فى الدنيا إذا انقطعتْ ... أسبابُ دنياك من أسبابِ دنيانا

يا سلوةَ الأيام موعدُك الحشرُ . موعدٌ والله بعيدٌ . لا سلوة حتى يؤوب عزى القرظة ، ويرجع النعمانُ إلى الحيرة ، ويبعث نبيٌّ من مكة .

لو لم تكنْ الآجالُ زبرًا لوجبَ أن أقتل بها صبرًا . على أنى والله قد أعلمتُها أنى مرتحلٌ ، وأنَّ عزمى على ذلك جادٌ مزمع . فأذنت فيه وأحسبها ظنَّته مزقة الشارب ، ومِيض الخالب . ولكل أجل كتابٌ . وحزنى لفقدها كنعيم أهل الجنة كلما نفد جُدِّدَ . وشرحه إملال سامع وإفناء زمان .

ألم تر إليه مكفوفًا يتخبطُ من الحزنِ فى ظلمة داجية لا يكاد يتخلَّصُ من عثرة حتى تصيبه أخرى . فمن تمثُّلٍ بشعر قديم إلى تولهٍ بحزن جديد ، ومن خطاب لأمه يتمثلُها أمامه ، إلى حديث عنها وقد انقطعت الأسبابُ بينهما . ثم هو لا يكاد يسلى نفسَه حتى يملكَه الحزنُ والأسى ، فيقسم ما لساوةٍ إلى قلبه من سبيل .

إنما هى أحاديثُ نفس مضطربة ، وقلب غير مستقرّ ، ولسان سيطرَت عليه العواطفُ ، فلم تترك للعقل سلطانًا عليه .

أما القصيدتان اللتان نظمهما أبو العلاء فى رثاء أمه فهما بالوصف أشبهُ منهما بالرثاء كما سترى عند الكلام على شعره . والظاهرُ أنّ ما يحتاج إليه الشعر من الصناعة والأناة من تكلف الوصف والتروّى فيه هو الذى ذهب بحدة تلك العواطف التى تمثلها الرسالةُ الماضية . وعلى الجملة فإنّ حياة أبى العلاء كانت أبلغ من شعره فى رثاء أمه والحزن عليها . كان فقدُ أبى العلاء أمه خاتمةَ ما قدرَ عليه زمن الفشل ، ولكنه كان أشدّ ما لقى من صروف الدهر أثرًا فى نفسه ، لأنه يأتلف من رزيتين : إحداهما فقد أمه ، والثانية فقد بغداد ، فإن حرصَه على لقاء والدته هو الذى أسرع به من مدينة السّلام . ولو علَم أنه لن يلقاها لاحتمل مرارة العيش وألم الإعدام ، وذلك حيثُ يقول فى قصيدته التى بعثَ بها إلى أبى القاسم التنوخى :

أثارَنى عنكمُ أمرانِ والدةٌ ... لم ألقَهـا وثَـراءٌ عادَ مَسْفُوتَا
أحياهما اللهُ عصرَ البينِ ثم قضى ... قبلَ الإيابِ إلى الذُّخرَينِ أنْ مُوتَا
لولا رَجاءُ لِقَائِيهَا لمَا تَبِعَتْ ... عَنْسِي دَليلاً كسِرّ الغِمْدِ إصْليتَا
ولا صَحِبْتُ ذئابَ الأنسِ طَاوِيَةً ... تراقبُ الجَدْىَ فى الخضراء مَسْبُوتَا

هذا المزاجُ المؤلفُ من الآلام والأحزانِ ، قد عمل عملا غير قليل فيما أنفق أبو العلاء بمعرةِ النعمان من الأيام ، بعد رجوعه من بغداد .

اعتزاله الناس

أخصُّ ما أنتج هذا المزاج فى حياة الشاعر ، حملهُ على الوحدة واعتزال الناس ولزوم بيته لا يبرحُه ، والاستقرار ببلده لا يعدوه ، فإنّ ما لقى من أذى الدهر ولؤم الناس بغّض إليه الاجتماع ، وحبّب إليه الانفراد . والظاهرُ أن فى طبيعة أبى العلاء شيئًا من حبِّ العزلةِ ، عرفه أبو العلاء فى نفسه فقال فى رسالة إلى خاله

أبى القاسم : « إنه وحشىُّ الغريزة إنسىُّ الولادة » . ونطقتْ لزومياته بكثير من الشّعر ، الذى يؤيد مذهبَ الوحدة ويحثُّ عليه ، وسنعرضُ له عند الكلام على هذا الرأى فى آرائه الفلسفيَّة . فأمَّا الآن فسبيلنا أن نحصىَ الأسبابَ التى حملته على هذه العزلة ، فأولُها هذه الغريزة التى ذكرها ودل عليها شعرُه ونثره ، ومنها ذهاب بصرِه ، فإنه حين فقد عينيه جهِلَ كثيرًا من آداب الناس ، فى حفلاتهم ومواضعاتهم فى أنديتهم ومجالسهم ، وهو كما قدَّمنا شديدُ الحياء عزيز النفس فكان يكره أن يخطئَ ما أَلِفَ الناس فيكون منهم مكان السُّخرية والاستهزاء ، أو مكان العفو والمغفرة ، أو مكان الشفقة عليه والرثاء له . فآثر أن يتجنَّب عشرتهم ما استطاع ، ثم كان فقده أباهُ وأمَّه وشدة فقره وسوء معاملة الناس له . فقوَّى ذلك كله فى نفسه هذا الميل . ثم كان بعد ذلك فشله فى الإقامة ببغداد حيث يلقى الفلاسفة وأهل العلم ، ويحضر مجالس الجدل والمناظرة . ثم اضطرارُه إلى الإقامة بمعرَّة النعمان ، تلك التى لا تقاسُ إلى بغداد لإصفارِها من العلم وخلوّها من العلماء . وكانت لذتهُ بعشرة البغداديين قد بغَّضت إليه غيرهم من الناس فاجتنبها ، فمثلهُ فى ذلك مثل الفقيهِ الذى رأى فيما يرى النائمُ ، كأن النبىَّ تفلَ فى فيهِ فأفاقَ ، وإنه ليجدُ لريقه من العذوبة والحلاوةِ ، ما بغَّض إليه الطعام والشراب حتى ماتَ .

ولقد قدَّمنا أن أبا العلاء قد كان شديد الذكاء ، دقيقَ الملاحظة فما كان يسمع كلمةً ، أو يحسُّ حركةً ، أو يعرفُ حدوث حادثة ، ونزول نازلة ، إلا بحثَ عن سرّها ، واستقصَى مصدرَها وغايتها . فلا شكَّ فى أنهُ درس أخلاقَ الناس فأحسن درسَها ، وبلا نفوسهم فأجاد بلاءَها . ثم لم ينتج له الدرس والابتلاء إلا شرًّا . ولا ريبَ فى أنه قرأ من كتُبِ الفلاسفة ما وافق هذه الأهواءَ فى نفسه فاشتد بغضه للدنيا وسوء ظنه بالناس . حتى إنه لما حدَّث خاله أبا القاسمَ عن احتفال البغداديين بوداعه وحزنهم لفراقه ، وعرضهم عليه الأموال والأرزاقَ ، شكَّ فى كلِّ ما فعلوه من ذلك : أكان مصدرُه النفاق أم الإخلاصَ ؟ ولكنه شكر لهم محاسنتهم له على كلتا الحالتين . فهذه الأسباب كلُّها هى التى ألزمتْهُ داره وسمَّته رهنَ المحبسين ، وهى تدلُّ على أنه لم يعتزل الناس إلا بعد بحث وتفكير ،

وبعد رويّةٍ وإجالة نظر ، وبعد استشارة لأصدقائه ببغداد حين عزم على فراقها ، وتدلنا على ذلك رسالة كتبها إلى أهل المعرّة قبل أن يصل إليهم ، يخبرهم بعزمه على العزلة ، وينهاهُم عن أن يحتفلوا بلقائه ، ويرسُمُ لنفسه هذا القانون الشديد الذى اتخذه إماماً إلى أن مات . لم تصلْ هذه الرسالةُ إلى أهل المعرّة ، ولكنها حُفِظَت فى ديوان رسائله حتى انتهت إلينا ، ولعلّها أبلغُ ما يؤثرُ فى وصف عزمه على العزلة ومجانبة الناس ، ولذلك آثرنا روايتَها . قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتابٌ إلى السكن المقيم بالمعرّة ، شملهم الله بالسعادة ، من أحمد بن عبد الله بن سليمان خصَّ به من عرفه وداناه ، سلّم الله الجماعة ولا أسلمها ، ولمَّ شعثَها ولا آلمها ، أما الآن فهذه مُناجاتى إياهم منصرفى عن العراقِ : مجتمع أهل الجدلِ ، وموطن بقيّةِ السلف ، بعد أن قضيْتُ الحداثة فانقضَت ، وودَّعت الشبيبةَ فمضَت ، وحلبتُ الدهر أشطرَه ، وجرَّبتُ خيره وشرَّه ، فوجدتُ أوفقَ ما أصنعهُ فى أيامِ الحياة ، عزلةً تجعلُنى من الناس كبارح الأروى من سانحِ النَّعامِ ، وما ألوْت نصيحةً لنفسى ، ولا قصَّرت فى اجتذاب المنفعة إلى حيزى ، فأجمعْتُ على ذلك ، واستخرْت الله فيه ، بعد جلائهِ على نفر يوثقُ بخصائلهم ، فكلهم رآهُ حزمًا ، وعدَّه إذا تَمَّ رشْدًا ، وهو أمر أسرى عليه بليل قضى برقه ، وخبت به النعامةُ ، ليس بنتيج الساعةِ ، ولا ربيبِ الشهر والسنةِ ، ولكنه غذى الحقَب القادمة ، وسليل الفكر الطويل . وبادرت إعلامهم ذلك مخافة أن يتفضَّلَ منهم متفضل بالنهوض إلى المنزل الجارية عادتى بسكناه ، ليلقانى فيه فيتعذرُ ذلك عليه ، فأكون قد جمعت بين سمجَتين : سوء الأدبِ وسوء القطيعةِ . وربَّ ملومٍ لا ذنب له . والمثلُ السائرُ " خلِّ امرأ وما اختارَ " ، وما سمَحَت القرون بالإيابِ حتى وعدتها أشياء ثلاثة : نَبذةً كنبذةِ فتيق النجوم ، وانقضاباً من العالم كانقضاب القائبة من القوب ، وثباتًا فى البلدِ إن جال أهله من خوف الرُّوم . فإنْ أبى من يشفقُ علىَّ أو يظهرُ الشفقَ إلا النفرة مع السواد كانت نفرةَ الأغفر أو الأدماء . وأحلفُ ما سافرتُ أستكثر من النشَبِ ، ولا أتكثَّر بلقاء الرجال ، ولكن آثرتُ الإقامة بدارِ العلم فشاهدتُ أنفسَ مكانٍ لم يسعف الزمنُ بإقامتى فيه . والجاهلُ مغالب القدرِ . فلهيت عما

استأثرَ به الزمان . واللهُ يجعلُهم أحلاسَ الأوطانِ ، لاأحلاسَ الخيلِ والرِّكاب ، ويسبغُ عليهم النعمةَ سبوغَ القمراءِ الطلقة على الظبي الغريرِ ، ويحسنُ جزاء البغداديين ، فلقدْ وصفوني بما لا أستحقه ، وشهدوا لي بالفضيلةِ على غير علم ، وعرضُوا عليَّ أموالَهم عرض الجد ، فصادفوني غير جذلٍ بالصنيعات ، ولا هشٍّ إلى معروفِ الأقوامِ ، ورحلتُ وهم لرحيلي كارهون ، وحسبيَ اللهُ عليه يتوكلُ المتوكلون » .

هل يمكنُ أن يخيَّل إلى باحث ، أن أبا العلاء إنما ابتغَى الوحدة وحرصَ عليها ، يتخذُها طريقًا إلى المجدِ ، وسبيلاً إلى النعمةِ بعدَ أن أعياهُ تحصيلُها من طريقِ عشرة الناس والاجتماع معهم . أما نحنُ فما يخطُر لنا هذا الخاطرُ إلا بمقدار ما نجتهد في دفعه وصرف القارئ عن تخيله . فإن الماضيَ من حياة الرَّجل يدل دلالةً واضحةً ، على أنهُ قد كان ينفقُ أيامَه ساذجًا غير متكلف ، وعفيفًا غير متبذّلٍ ، وليس من الحقِّ أنَّ المجدَ والنعمةَ قد أعجزا أبا العلاء . وإنما الحقُّ أنه هو الذي أعجزهما . فقد كان من اليسير عليه ، أن يعيشَ ببغداد ألوانًا من العيشِ ، وهو واثقٌ بالظفر والنجاحِ . كان يستطيعُ أن يعيشَ عيشة الشعراء فينال من سراة العراقِ ما يكفل له الثروة والغنى . وكان يستطيعُ أن يعيشَ عيشة اللغويين ، وأن يحيا حياةَ الفلاسفةِ في عصره . ولكنه انصرفَ عن ذلك كله . فلم يرضَ إلا هذا السجنَ الذي أنفق بقية حياتهِ فيهِ .

انصرف عن ذلك ، لأنَّ فطرتهُ تأباهُ ، ولأنَّ ما اكتنف حياته من المؤثرات قد أعان هذه الفطرةَ على تعذيب صاحبها وأخذهِ بهذا القانون الصارم المحتوم ، لقد رأى القفطيُّ أن أبا العلاء إنما لزم بيته وتزهد لفقره وعزَّة نفسه . وهذا حقٌّ . ولكنا نحسب أن أبا العلاء لو كان غنيًّا لما عدل بالزُّهد والعزلةِ شيئًا من نعيم التَّرفِ والاجتماعِ ، فأمَّا البرهانُ على ذلك فسيلقاك بعد حين .

طوره الثالث

قفْ بنا الآنَ على دارٍ بمعرةِ النعمان لم يصفها التاريخ ، ولكنها كانت من غير شكّ ظاهرة الفقرِ : ليست بالجميلةِ ولا المزدانة ، قد انزوَى فيها رجل مكفوفٌ نحيفٌ ، فى وجههِ آثار الجدرىّ ، ترتسمُ على جبينه صورٌ مختلفة تمثل حزنهُ على أمه حينًا . وأمله من عشرةِ الناس حينًا ، وأمله فى تلك السعادة الّتى يخبؤُها له هذا السجنُ المظلمُ الذى لا يهتدى إليه النجمُ ، ولا تصِلُ إليه الظنون ، وهذا الرجل لم يعدُ من عمره الثامنة والثلاثين .

تخيَّل ما استطعتَ فى أن تدخل هذه الدارَ ، وتقف من هذا السجين بحيثُ تراه وتسمعهُ . ربَّما رأيت فى ناحية من نواحى الدَّارِ خادمًا قد جلس ، وإن الكسلَ ليعبثُ بهِ ، وإنَّ الخمولَ ليتسلَّطُ عليهِ ، لأنهُ لا يجدُ من الأعمال ما يفيده القوة والنشاطَ ؛ تلطَّفْ بهذا الخادمِ حتّى لا يأتىَ من الحركات ما يؤذن هذا السجين بمكانك . خُذْ هذا السجين بعينك ؛ وألقِ إليه سمعك ، إنك لتراهُ على ما قدَّمنا من الوصف ، وقد التفَّ فى ثوب غليظٍ من القطنِ ، وجلسَ على فراش من اللبدِ وهو يقولُ : مالى وللناس ؟ لقد بلوتُ أخلاقهم فلم ألقَ إلا شرًّا ، واختبرتُ طباعَهم فلم أجدْ إلا نكرًا . فلتضربَنَّ بينى وبينهم الحجب ، ولتسدلَنَّ بينى وبينهم الأستار . لقد سمعْتُ منهم فما نطقوا إلا محالاً ، ولقد تحدثْتُ إليهم وتحدَّثَ إليهم قبلى الحكماء وأولوالنُّهى فما آثروا إلا طاعة الأهواء، وما استجابوا إلا لدعاء الشهواتِ . فلتصمَّن عن حديثهم أذُنى ، ولَيُعقَدَنَّ عن تحديثهم لسانى ، ولَيمحيَنَّ من قلوبهم شخصى ، وليحسبنى بعد اليوم من أهل القبورِ . مالى وللدُّنيا ؟ لقد أتيتُها كارهًا ، وعاشرتْها كارهًا ، ولأخرجَنَّ منها كارهًا . ولقد ذقْتُ من لذاتها ما لم أرجُ واحتملْتُ من آلامها ما لم أحتسِبْ . فإذا اللذةُ إلى ألمٍ ، وإذا السعادةُ إلى شقاء ، وإذا الأملُ إلى يأس ، والرجاءُ إلى قنوط ، إنى لأحمقُ إن لم أطرحْها قبل أن تطرحَنى ، وأزدرِها قبل أن تزدرَينى ،

وأملأ قلبي عن لذاتها بالعزاء النافع والصبر الجميلِ . مالى وللزواج والنسل ! لولا أن أبى قد قذف بى فى هذه الحياة لما لقيتُ ألمًا ، ولما احتملتُ عناءً . أفليس يُقنعنى أن أحتملَ هذه الجناية حتى أنقلَها إلى برىء لم يجنِ ذنبًا ، ولم يقترفْ إثمًا ؟! مالى وللحيوانِ ! أسخرُه فى منافعى ، وأصرّفهُ فى مآربى ، ولا يُرضينى ذلكَ حتى أستلبه من الحياة حقًا لا أملك استلابه ، وأحمله من الألم قسطًا لاتدفعنى الرحمة عن تحميله إياه ! ! لطالما روعت الفرخ بأمّه ، وفجعت الشاة بسلخها . ولطالما صرفت عن الفصيل دره ، وغصبت النحل ثمرة كدّها . وإنى على ذلك لظالمٌ أثيمٌ ! إن فيما تخرجُ الأرض من النبات لدفعًا للجوعِ ، وإن فيما تنزلُ السماءُ من الماء لشفاءً للغليلِ وإنّ فى الحرص على ما فوقهما لشرهاً أنا له كارهٌ ، وعنه عيوفٌ . مالى ولنفسى ! لقد أصغيْتُ لها حينًا فكلفتنى أعاجيبها مثنى وفرادَى . وما أرانى أفدْتُ من طاعتها إلا الألم والكدّ وسوءَ الحال ، فلآخذنّها بقانونٍ لا تجوزه ، وحدّ لا تعدوه . ولأملكنّها بعد أن ملكتنى ، ولأسيطرَنّ عليها بعد أن سيطرَتْ على ، ولأوفرَنّ على العقل حظّه من القوة والسلطانِ .

كذلك كان يتحدّث هذا السجينُ إلى نفسه ، حين لزمَ بيته آخر سنة أربعمائة : يبدأ سيرة قاسية ويلتزمُ ما لا يلزم فى كل شىء . يعتزل الناس ومن حقّه أن يلقاهُم ، ويلبس خشنِ الثياب ، ومن حقّه أن يتخيّر لينها ، ويأكل غليظَ الطعام ومن حقه أن يتذوقَ رقائقه ، ويؤثر العزوبة والعقمَ ، ومن حقه أن يسكنَ إلى الزوج وأن يتمتّع بالنسل . ثم يلتزم فى القافية حرفين ، وقد رخص له الله التزام حرف واحد ، فهل وُفّق إلى تنفيذ هذا القانون ، نعم قد وفّقَ إلى تنفيذه ، لم يخلّ بأصلٍ من أصوله إلا شيئًا واحدًا لم يستطعْ أن يظفرَ به ولا أن يصل إليه .

فشله فى طلب العزلة

ذلك هو اعتزالُ الناس ، فإنّ الرجل لم يكَدْ يبدأ سيرته الشاقّةَ بمعرّة النعمان ، حتى أخذ الناسُ يسعوْن إليه ، والحياءُ يحولُ بينه وبين ردّهم . والحقُ

أن العزلة التامة لم تكن ميسورةً لأبى العلاء ، وإنما كانت أمنيةً ضائعة ، فإنه وإن زهد فى كل لذّات الحياة لا يستطيعُ أن يزهد فى العلم والتأليف اللذين قد ملكاه واستأثرا به . وكلاهما يكلفُه عِشرة الناس لاحتياجه إلى من يقرأ له ويكتبُ عنه . لذلك لم يلبَث بعد استقراره بالمعرّة أن اشتغلَ بالتعليم ، فالتفَّ حوله الطلاّبُ ، وأخذُوا يدرسون عليه اللغة وآدابها ، وما هو إلاّ الزمنُ القليل حتى كثُر سوادُهم حوله . ثم لم تمض على هذه الحال أعوامٌ ، حتى أخذ الناس يزورونه ويكتبون إليه ، فاستحالت عزلته إلى أشدِّ أنواعِ المعاشرة . على أنه لم يأسَفْ لفوات هذه العزلةِ ؛ لأنه إن كثرَ اختلاطُه بالناس فإنه لم يصلْه بهم إلاّ العلم . وليس فى العلم ما يؤذيه أو يسوؤه .

شهرته

ليس من المنتظَر أن يشتغلَ رجل كأبى العلاء بالدّرس والتعليم فى بلاد كبلاد الشام ، من غير أن يكثُر سوادُ طلاّبه ، لما علمت من قيمةِ الرجل فى نفسه ، ومن حرص الناس على العلم فى ذلك العصر . ولقد كان أبو العلاء فى القرن الخامس ، بإقليم حلبَ كابن خالَويه فى القرنِ الرابع . فتسامعَ به أهلُ حلبَ خاصةً ، ثم أهلُ الشام عامة ، ثم أهلُ البلاد الإسلامية جميعًا . وأخذ الطلاّب يفدون عليه من أقطار الأرضِ ، يحتقرون فى سبيل ذلك بعد الشقة ، وضعْفَ المنةِ ، وقلةَ المالِ . حتى لقد رحل الخطيبُ التبريزىُّ إليه ، من خراسانَ ماشيًا يقل أثقاله لعجزه عن مطية تبلغُه غرضَه . ثم اتصلت الرسائل بين أبى العلاء وبين عُظماء الشام والعراق : وفيهم الوزراءُ والأمراءُ ، والقضاةُ والعلماءُ ، وأصحابُ المكانة . وظفر الرجل من بُعدِ الصّيت ، بما نظنُّ أنه ما كان يظفرُ به ، لو أقامَ ببغداد لكثرةِ الخصوم والمنافسين .

موضوع درسه

لا نعرفُ أن أبا العلاء درَس شيئًا غير اللغة وآدابها . فهو لم يكُن أستاذ فلسفة ولا دينٍ ، وإنما كان أستاذ لغة وأدب . غير أنَّا إذا فهِمْنا من لفظِ الفلسفة هذا النحو ، الذى اشتملت عليه اللزوميات ولم نقصره على الفلسفة العلمية ، لم يكن بدٌّ من الاعترافِ بأن أبا العلاء قد درَس لطلابه الفلسفةَ أيضًا ؛ لأنه كان يملى عليهم شعره ونثرَه ، ويفسِّرُ لهم منه ما احتاجَ إلى التفسيرِ .

اتّهامه بالزندقة

هذه الدروسُ الفلسفية التى كان يُلقيها أبو العلاء ، كأنها دروسٌ فى اللغة والأدب ، قد شاعَت عنهُ وتناقلَها الناس ، وشاع معها ذلك القانونُ الذى قدَّمنا ذكرهُ . فرأى الناسُ من ذلك شيئًا لم يعرفوه . وما زالَ فى أهل الأرض المنكرُ للجديد ، الساخطُ على الحديث . فرمَوا الرجل بالزندقة ، واتهموه فى دينه . وسندرُسُ هذا الموضوع فى المقالة الخامسة ، وإنما ذكرناهُ الآن لننتقل منه إلى أمرين : أحدهما أنَّ وصمة الزندقة قد جرَّت عليهِ ألوانًا من الأذَى . ولكنَّه أذًى يستهين به الفيلسوف ، لأنه لا يتجاوزُ الشّم ، والتشنيعَ . فقد دخل عليهِ ذاتَ يوم رجلٌ من قراء المعرة يعرَفُ بأبى القاسم فطلب منه بعض الناس أن يقرأ شيئًا من القرآنِ ، فتلا قولَ الله عزَّ اسمهُ : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرةِ أعمى وأضلُّ سبيلا » . وإنما يريدُ إيذاء أبى العلاء . وكأن هذه النيةَ السيئة قد آلمت الرجلَ حقًّا وإن لم يُظهرْ ألمًا ، فإنه قال فى هجاء هذا الرجل :

هذا أبو القاسمِ أعجوبةٌ ... لكلِّ من يدرِى ولا يَدْرِى
لا ينظم الشعرَ ولا يقرأ الـ ... ـقرآنَ وهو الشاعرِ المُقرى

ودخل عليه الوزيرُ المشهور بالمنازىّ ، فسأله : ما هذا الذى يرويه الناس عنك ؟ قال : قومٌ حسدونى فكذّبوا علىّ . فأجاب المنازى : وعلامَ حسدوك وقد تركْتَ لهمُ الدنيا والآخرة ؟ قال أبو العلاء : والآخرة ؟ ثم أطرقَ ولم يكلّمنى حتى قمتُ عنهُ . وزاره بعض القضاة فقال له أبو العلاء : لم أهجُ أحداً . قال : صدقْتَ إلا الأنبياء ؛ قال : فتغير لونهُ . . . فهذه الأنباء تدلُّ على أنّ ناساً كانوا يتعمّدون أن يلقوا الرجل بالأذى ، وكان ذلك ربّما بلغ من نفسه .

الأمر الثانى أن وصمةَ الزندقة لم تُصبْه بسوء فى نفسه ، ولا فى شهرته العلميّة . فما زالَ طلابه كثيرين إلى أن ماتَ . وما زال خصومه وأصدقاؤه يشهدون له بالعلم الجمّ ، والذكاء النادر ، والتفوق الكثير . وما علمنا أنه بات ليلةً على خوف من حاكم أو سلطان إلا ما كان من قصّةٍ يروُونها . وما نشكُّ فى أنها كذب صريحٌ .

قالوا : إن وزير حلبَ بعث إلى أبى العلاء خمسين فارساً ليقبضوا عليه ، فأنزلهم مجلساً له ، ودخل عليه عمُّه فقال له : ما كان أغناك وأغنانا عن هذا . فهوّن أبو العلاء عليه الأمر . فلما كان الليلُ استقبل المريخ وأخذ يتلو أحاجى غامضةً ويقولُ : الضيوفَ الضيوفَ ، الوزير الوزيرَ . قالوا : فما أتم كلامه حتى سقطَ المجلس على من فيه فقتلهم . وأصبحُوا فإذا رسالة من حلبَ على جناح حمامة : ألا تروّعوا الشيخَ فإن الحمام قد سقطَ على الوزير فقتله ؛ ومع أنّ هذه القصة تكذّب نفسَها فإنّ عمّ أبى العلاء ماتَ قبل أبيه . ولم يكنْ أبو العلاء ينتحلُ السحر ولا يعرف الطلسمات . فإن سألتَ عن علة هذه الحرية التى أطلقت لأبى العلاء فسنجيبك عن هذا السؤال فى المقالة الخامسة إن شاء اللهُ .

اتصاله بالسياسة

لم يكن لأبى العلاء بالسياسة العملية كبيرُ اتصال ؛ ذلك لأنّ ذهابَ بصره يحولُ بينه وبين لقاء الملوك والأمراء ، إذا لاحظْنا أنّ حياءه كان شديداً ، وأن

حرصَه على ألاَّ يظْهر تقصيرهُ عن شأوِ المبصرين فى الأوضاع العامَّة كان عظيمًا . كما أنَّ فطرته ودرسَه وفلسفته وجملة حياته المادية والعقلية ، كانت تحولُ بينه وبين قصورِ الملوك والأمراء ودواوين المشورةِ والحكْمِ . وقد دعى الرجلُ إلى منادَمة عزيز الدولة[1] الذى قدمنا تعيينه فى المقالة الأولى فاعتذَر بكبر السنّ وقلةِ البضاعة .

ومن الحقّ أن بضاعتَه كانت قليلة إن أريد منه أن يكون نديمًا . فإنَّ رجلاً لا يعرفُ إلا الحقَّ والصراحَة ، ولا يطمئنُّ إلى ما مضَتْ به سنةُ الناس من نفاق ومداجاة ، لا يُغْنى فى منادمةِ الملوك غناء . وهو يتعرضُ بكثْرة علمه ، وظهور فضله ، وغزارة مادته ، وسلامةِ صدْرِه من الغلّ ، ونفسه من الأذَى ، إلى طوائف منَ الحساد ، مسلَّحين بالمكر والخديعةِ وبالوشايةِ والنميمة ، وبالنكاية والوقيعة ، وهو بين أيديهم أعزلُ لا يعتزُّ من هذه الخصالِ بسلاحٍ ، ويأوِى منها إلى ركن شديد . فليس من الغريبِ أن يأبى هذه المنادمة ، وإنما من الغريب أن يجيبَ إليها .

ولقد أكرِهَ أبو العلاء على أن يكونَ سفير قومِه عندَ صالح بن مرداس حين حاصرَ المعرَّة وألح عليها ، فأحسنَ السفارةَ . ولولا شهرتهُ وصيتُه وحرصُ صالح على إرضائه ، ورقَّةُ لهجته فى الشفاعة لقومه ، لما صنعَ شيئًا . نقول إنه قد أكْرهَ على هذه السفارة . وإنما أكرهَهُ تضرُّعُ قومه إليه ، ورقةُ قلبه لهمْ . على أنهُ لم يعُدْ من عندِ صالح حتى أعلنَ آلمه لهذه السفارةِ فقال :

تَغيَّبت فى مَنزِلى برهةً ... سَتيرَ العُيوبِ قليلَ الحسَدْ
فلمَّا مضَى العمرُ إلاَّ الأقـ ... ـلَّ وحُمَّ لِروحى فراقُ الجسَدْ
بُعِثْتُ شفيعًا إلى صالح ... وذاك من القومِ رأىٌ فسَدْ
فيسمعُ منِّى سجعَ الحمامِ ... وأسمعُ منه زئيرَ الأسدْ
فلا يُعجبنِّى هذا النفاقُ ... فكم نَفَّقَتْ محنةٌ ما كسَدْ

فانظُر إلى هذين البيتين الأخيرين : كيف مثَّل بأولهما ضعفَه ورقةَ قلْبه ،

(١) الرسائل ص ٦٠ أكسفورد و ٩٢ بيروت .

وقرنهما إلى قوة صالح وغلظته ، فنتجَ عن هذه المقارنة مزاجٌ فلسفى جميلٌ : هو فصلٌ ما بين الزهد الشديد والانهماك فى ملاذ الدنيا من القوة والبطش ، ومن الاستطالة والسلطان . وأخذَ نفسه فى الثانى بأن لا يخدعَه التجاء قومه إليه ، وقبولُ صالح شفاعته ، فليس لذلك مصدرٌ فى حقيقة الأمر ، إلا هذه المحنة التى حملت أهل المعرة على أن يتوسّلوا وحملت صالحًا على أن يقبل الوسيلة ، إيثارًا للصُّلح ، وحقنًا للدماء . لعل غلوَّ أبى العلاء فى الحذر من الناس وسوء الظنّ بهم وشدة الاتهام لهم هو الذى أنطقَهُ بهذين البيتين ، ولكنهما يدلاّن من غير شكّ على أنّ الرجلَ لم يكن يصلحُ لعمل سياسىّ ما ؛ لأن السياسة تحتاجُ إلى ألوان من الأخلاق ليس لأبى العلاء منها شىءٌ .

* * *

وهذا أوانُ البرّ بما وعدنا به فى المقالة الأولى ، من تحقيق قصة صالح ومحاصرته المعرّة . فقد اختلف فيها المؤرخون اختلافًا كثيرًا ، ولم يستطيعوا أن يجزمُوا بمصدرها ، ولا أن يتّفقوا على نتيجتها . ولا علةَ لذلك إلاّ أنهم لم يدرسُوا حياة أبى العلاء . ولو أنهم درسوا اللزوميّات لاستطاعوا أن يستنبطُوا الحادثة منها ، فإنّ أبا العلاء قد ذكر سببها وبيّن نتيجتَها ، وشفاعته فيها ، وذلك فى ثلاث مقطوعات من اللزوميات تفرقت بين بابِ الدّال والراء واللاّم . فأما سببُ الحادثة فهو أن امرأةً لم يسمِّها أحدٌ من المؤرخين ، ولكنّ أبا العلاء سماها « جامع » أقبلَتْ يومَ الجمعة على الناس وهم فى مسجدِهم ، فشكت إليهم : أنّ أصحابَ الماخورِ ، تعرضُوا لها وأرادوها بمكروه ، فغضِبَ لها الناسُ ، وهدموا الماخورَ ، وهرقوا ما فيه من خمر . وأفسدوا ما فيه من أداةِ لهو وطرب ، وقد رضىَ أبو العلاء عن هذا كلَّ الرضا ، وَحَمَدَه أحسن حمدٍ فقال :

أتت جامعٌ يومَ العروبة جامعًا ... تقصُّ على الشهّادِ بالمصر أمرَها

فلو لم يقومُوا ناصرين لصَوْتِها ... لحلْتَ سماء الله تُمْطِرُ جَمْرَهَا

فجدِّدْ بناءً كان يأوى فناؤه ... فواجر ألقتْ للفواحشِ خمرَها

وزامرة ليست من الرُّبدِ خضَّبتْ ... يَدَيْها ورجليهـا تنفق زَمرَها
أَلِفْنـا بلادَ الشام إلْفَ ولادة ... نُلاقى بها سُودَ الخطوبِ وحُمرَها
فطورًا نُداري من سُبَيْعَةَ ليثَها ... وحينًا نصادى من ربيعةَ نمرها
أليس تميمٌ غيَّر الدهـرُ سعدَها ... أليس زَبِيدٌ أهلكَ الدهرُ عَمْرَها
وددت بأنى فى عمايةَ فاردٌ ... تُعاشِرُنى الأروَى فأكْرَهُ قمرها
أفرُّ من الطغوى إلى كلِّ قفرة ... أُوانسُ طغيـاها وآلفُ قُمرها
فإنى أرَى الآفاقَ دانَت لظالم ... يغـرّ بغـاياها ويشربُ خمرَها
وإن كانت الدُّنيا من الأنس لم تكن ... سوى مومسٍ أفنت بما ساءَ عُمرها
تدينُ لمجدودٍ وإن باتَ غـيرُه ... يهزُّ لها بيضَ الحروبِ وسُمْرَهَا
وما العيشُ إلاّ لجـةٌ باطليَّـةٌ ... ومن بلغَ الخمسينَ جاوزَ غَمرَها
وما زالت الأقدارُ تتركُ ذا النهى ... عديمًا وتعطِى منْيةَ النفس غُمرها
إذا يسَّرَ اللهُ الخطوبَ فكم يد ... وإن قصُرَتْ تجنِى من الصاب تمرها
ولولا أصولٌ فى الجيادِ كوامنٌ ... لما آبت الفرسانُ تحمَد ضُمْرها

فانظر إلى هذه القصيدة ، كيف شرحت الحادثة أحسنَ شرح ، وكيف مثَّلت سخطَ الشاعرِ على الحياةِ السياسيَّةِ فى الشامِ خاصة ، لاستبدادِ العرب بها ، وفى المملكةِ الإسلاميةِ عامةً لتسلطِ الظالمين عليها ، ثم سخطِه على الدنيا وخضوعها للمصادفةِ والحظ . ثم تمنَّى لو أنه استطاعَ أن يعتزل الإنسانَ ، ويألفَ وحش الفلاةِ . فلو أن المؤرّخين قرءُوا هذه القصيدة لما اضطربوا فى هذا الأمر ، ولما أوقعوا مَنْ بعدَهم من الباحثين فى هذا الاضطراب . على أنَّ أبا العلاء لمْ يفصّل لنا ما كان بعد ذلك من سُخطِ صاحبِ حلبَ ، أو أحدِ عماله المسيحيين على أهل المعرَّة ، ومن حصارِ صالحٍ لها . والظاهرُ أنَّ صاحب حلبَ قبضَ على سبعينَ من أهلِ المعرَّة ، كما يقول الصَّفدى ، وأن أهل المعرة كرهوا ذلك فثارُوا ، واشتدَّ الأمرُ وعظُم الخطبُ حتى دعا أهلُ آمد وميافارقين فى مساجدهم لأولئك الأسارى ، ثم كان من حصار صالح لأهلِ المعرَّة ، وشفاعةِ أبى العلاء عنده ، وعفوه عن المدينة والأسارى ما قدَّمناه وذكره المؤرّخُون . وقد اتَّفقُوا جميعًا على أنَّ صالحًا قال لأبى العلاء بعد أن سمعَ شفاعته : قد وهبتُها لك ، يريدُ المعرَّة .

فلنحتفظ بهذه الكلمة ، فستفيدُنا فى تحقيقِ ثروته . رجعَ أبو العلاء من عند صالح وهو يقول :

نجّى المعرَّة من براثِن صالح ربٌّ يداوِى كلَّ داء معضِلِ
ما كانَ لى فيهـا جناحُ بعُوضة اللهُ أولاَهُم جنـاحَ تفضـلِ

* * *

لأبى العلاء شفاعاتٌ إلى أولياء السلطانِ ، فى أناس كانوا يتشفَّعُون به ، ولكنَّه كان يجعلُ حظَّ الإنشاء والافتنانِ اللفظىِّ فى تلك الشفاعات أكثر من حظِّ الذى توسَّل به ورغبَ إليه ، أما نظرُه فى الحياة السياسيَّة فى الشام ومصرَ ، وفى العراقِ والهند ، فكثيرٌ يظهر عليه من قرأ اللزوميات وسقط الزند . ولقدْ أشرنا فى المقالة الأولى إلى الأبياتِ التى قالَها حين غلبَ صالح بن مرداس على حلبَ . والظاهرُ أن تأثير هذه الفتنة فى نفسه كان شديداً ، فذكرَه فى قصيدة من سقط الزَّند بعثَ بها إلى خازنِ دارِ العلم ببغدادَ فقال :

وما أذهلَتْنى عن ودادكَ رَوعَةٌ وكيفَ وفى أمثاله يَجب الْغَبْطُ
ولا فتنـةٌ طائيَّةٌ عـامريَّةٌ يُحرَّقُ فى نيرانها الجعْدُ والسَّبْطُ
وقد طرحَتْ حولَ الفُراتِ جِرانَها إلى نيلِ مصرٍ فالوَسَاعُ بهـا تَقْطُو
فَوارسُ طعَّانُونَ ما زالَ للقَنَا مع الشَّيب يومًا فى عوارضهم وَخْطُ
وكلُّ جوادٍ شفَّهُ الرَّكضُ فيهمُ وَجٍ يتمنَّى أنَّ فارسَه سـقطُ
ونَبالةٍ من بُحْتُرٍ لو تَعمَّدُوا بليـل أناسىَّ النَّواظِرِ لم يُخْطوا

وله فى السياسةِ النظرية رأى نذكرُه عند الكلامِ على فلسفتِه فى المقالة الخامسة .

ثروته

قدَّمنا فى الطورِ الثانى من حياةِ أبى العلاء أن ثروته كانتْ ثلاثينَ ديناراً يغلها عليه ، فى كلِّ عام ، وقفٌ له ولقومه ، وأنه قد خصَّص نصفَ هذه

الثروة لمن يخدمه واكتفى بنصفها لحاجته . ولم يخالفْ فى ذلك أحدٌ من المؤرّخين ، ونصّ عليه أبو العلاء نفسُهُ فى المناظرة التى كانتْ بينه وبين داعى الدعاة فى أكل الحيوان . ولكنّ أمرَين يعترضاننا إنْ شئنا أن نقفَ عند هذا الحدّ فى تحقيق ثروته : أحدُهما أنّ أبا العلاء نفسَه يذكر فى بعض شعره أنه ذاقَ الغِنى وعرف لذّاته ، وذلك حيث يقول فى اللزوميّات :

خبرْتُ البرايا والتصعلك والغِنى ... وخفضَ الحشايا والوجيف مع السفر
فأطيبُ أرضِ الله ما قلّ أهله ... ولم ينأ فيه القوتُ عن يدكَ الصفر

فمن أين له الغِنى وخفضُ الحشايا ؟ ما نشك فى أنه قد مرّ بهما مرور الطيْفِ فى يوم من أيامه ، التى قضاها عند أخواله بحلب ، أو عند أصحابه بمدينة السّلام . ولعله ظنّ جلوسَه على الفراش الوثيرِ ، وتمتعه بالطعام الشهىّ ساعة من نَهارٍ فى دارِ سابورَ بن أردشيرَ ، أو عبد السلام بن الحسين ابتلاءً للغنى . والثانى أن ناصرى خسرو وهو الرحّالةُ الفارسى قد مرّ بمعرّة النعمان أيام أبى العلاء كما قدّمنا ، فقال فى وصفه : ويحكمُها ، أى المعرةَ ، رجلٌ ضرير يعرفُ بأبى العلاء ، عظيم الثروة يملكُ عددًا ضخمًا من العبيد والخدَم ، وكأنّ سكان المدينة كافةً خدمُه . أما هو فيحيا حياة خشنة ، يلبس غليظَ الصوف ، ولا يغادر بيته ولا يأكل إلا الشعيرَ ، وسمعتُ الناس يتحدثون بأنّ بابه لا يُغلق ، وأنّ نوابه يعملون فى تدبير المدينة ولا يلجأون إليه إلا فى مهامّ الأمور ، وأنه لا يمنَعُ سائلا ، يقومُ الليلَ ويصومُ أبدًا ، ولا يحفلُ بالدنيا . فهذا الوصف يناقِضُ ما عرفناه من تاريخ أبى العلاء ؛ لأنا لم نعرف الرجلَ مالكًا ولا صاحبَ حكم ، ولا نعرفه غنيًّا ولا ذا ثروة ، وإنما عرفناه فقيرًا قد اعتزلَ الناسَ ، وقد صفرت يدُه من المال ، وكثُرت حوله الطلاّب ، وعجزَ عن أداء حقوقهم فقال فى اللزُوميّات :

يَزُورُنِى القومُ هذا أرضُهُ يمَنٌ ... من البلاد وهذا دارهُ الطبَسُ
قالوا سمعنا حديثًا عنكَ قلت لهمْ ... لا يُبعدُ اللهُ إلاّ معشرًا لبسُوا
يَبغون منى معنًى لستُ أحسنهُ ... فإن صدقْتُ عرَتْهُم أوجهٌ عُبسُ
أعاننــا الله كلّ فى معيشتــهِ ... يَلقَى العناء فدُرّى فوقَنا دُبسُ

ماذا تريدونَ لا مالٌ تيسَّر لى ... فيستمـــاح ولا علمٌ فيقتبَسُ
أتسألون جَهـــولا أن يفيـــدكم ... وتحلُبون ســـفيًّا ضرعُهـــا يَبَسَ
ما يُعجِبُ الناسَ إلا قولُ مختدع ... كأنَّ قومًا إذا ما شُرِّفوا أُبِسوا
قد أنفدوا فى ضياع كلَّ ما عَمروا ... فكان مثل جلالِ البُدْن ما لبســـوا
أنا الشقىُّ بأنى لا أطيقُ لكم ... معونةً وصـــروفُ الدهرِ تحتبس

هذه الأبياتُ مع ماتدلنا عليه : من شهرة أبى العلاء ، وازدحام وفود العلم ببابه ، تمثل لنا فقرَه وضيقَ يده عما تحتاج إليه الشهرة من النفقات ، وقد تبرَّأ الرجلُ من الثروة غيرَ مرة فى اللزوميات ، فكيف نوفقُ بين حديث الرحالة الفارسى وبين ما يدلُّ عليه نظم الرَّجل ونثره وتاريخه ؟

لهذا التوفيق وجهان يحتملُهما العقلُ : الأول أن الرَّحالة وصفَ ما شهدَ فى المعرَّة من جاهِ أبى العلاء وسلطانه المعنوىّ ، فظنَّ ذلك ثروة وملكًا . الثانى : وهو ما نميل إليه ؛ أن أبا العلاء كان يملك المعرَّة حقًّا ، وكان يحكمها بنواب يدبرون أمرَها ، ويرجعون إليه فى جلائل الأعمال فإذا شئنا أن نرجح ذلك ، فإن الأدلة التاريخية الثابتةَ لا تواتينا . ولكنَّا نذكر قول صالح بن مرداس له حين شفع عنده فى المعرَّة : قد وهبتُها لك .

أفلا يمكنُ أن يكونَ هذا إقطاعًا ، وأن المعرَّة صار أمرها من ذلك الوقت إلى أبى العلاء ، على أن تعترف بسلطان حلبَ وتؤدىَ إليها الخراج ؟ ذلك ممكنٌ ولكن التاريخَ لم يروِه ولم ينص عليه ، لا لأنه روَى غيره بل لأنه أهمل المعرة إهمالاً تامًّا فى ذلك العصر .

كانت قصةُ صالح مع أبى العلاء بين سنةِ سبعَ عشرة وبين سنةِ عشرين وأربعمائة . وكانت زيارة ناصرى خسْرو للمعرة بعد ذلك ، أى سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة . فلو أنَّه مر بالمعرة قبلَ هذه القصة لكان من الحقِّ أن نرفضَ خبره ولا نُصغى إليه . أما وهو لم يمر بها إلاَّ بعد صالح وقصته ، فمن الظُّلم للتاريخ أن نمر بهذا الخبر من غير أن نُثبت هذا الاحتمال .

كان أبو العلاء زاهدًا عفيفًا . وكان يرى أن الإنسان لا يملكُ فى هذه الدنيا

شيئًا إلا ما يقومُ بحاجاته كما سترى ذلك فى موضعه . فهذا الرأى وهذا الخلقُ هما اللذان منعاه أن يستمتعَ بما تغلُّ المعرة من ثروة ، وأوجبا عليه أن يقرَّ الناس على ما فى أيديهم ، ويبقى هو على فقره الذى كان يراه غنى وثروةً .

ولذلك قال ناصرى خسرُو : ولقد قال بعض الناس لأبى العلاء : إن الله عزَّ وجلَّ قد أسبغ عليك نعمته ، فلم تُبيحُها للناس من غير أن تتمتعَ بها ؟ فأجاب : إنى لا أملك منها إلا ما يقيم أودى .

وسواءٌ صحَّت رواية الرّحالة أم لم تصح ، فإن فى حياة أبى العلاء شيئًا يلزمنا ألا نصدق ما يرويه التاريخ من فقده المدقع غير تحفُّظ ولا أناة ، فإن فى رسائله مايدلُّ على أنه قد كان يهدى إلى أصحابه الهدايا ويعينُ أصدقاءَه بالمال ، فمن أينَ له تلك الهدايا وهذا المالُ إذا لم يكن عندَه فضلٌ من الثراء ولو قليلٌ ؟ ولذلك روى القفطىُّ أن طلاَّبه ذكروا بحضرته يومًا بطيخَ حلب . قال فتكلَّف أبو العلاء وبعثَ من جاءه منهُ بحمل ، فأكلَت الجماعةُ وأفردُوا له منه شيئًا لم يذقْه ولم يعرضْ له حتى فسد . فلو لم يكن عندَه وفرٌ ما استطاع أن يبعثَ إلى حلبَ من يأتيه بهذا البطّيخ . وكذلك ضيف القاضى عبدَ الوهاب بن على المالكى كما قدمنا . فمن أين له ما ضيفه به إذا كان من الفقر على ما يقولون ؟

لقد كان برُّ أخواله به متصلا ، وكانت تُهدى إليه الهدايا فيقبلها شاكرًا ، كما تدل رسائله على ذلك . فهذا البرُّ من أخواله وهذه الهدايا من أصحابه ، كانت توسع عليه بعضَ ما يجدُ من الضيق .

سيرته فى بيته

لم يفصّل لنا التاريخُ من هذه السيرة شيئًا ، ولكنَّ جملةَ آثار تدلُّ على أنه كان يقضى حياته وادعًا مطمئنًّا قد أمن الناسُ شرَّه ؛ لأن الزهدَ والحكمةَ وقوانينَهما الصارمةَ ، لم تبق فيه قوةً على الأذى ولا ميلاً إليه ، ولا يحفظُ لنا

التاريخُ أنه سبَّ أو شتم فى حياتهِ ، إلا ما كان مِن قِصَّةِ ذلك القارئ الذى قدَّمنا ذكره .

ولقد كان أبو العلاء شقيًّا بخادمه فقال فيه :

ومن عناءِ اللَّيـــالى خادم ضغن إن يؤمر الأمر يفعلْ غير ما أمرا

وليس هذا بغريب فإنَّ المأمون لم يكذِب حين قال : إذا حسُنت أخلاقُ المخدومِ ساءت أخلاقُ الخادم .

لم تكنْ لأبى العلاء زوجٌ ولا ولدٌ فنبحث عن سيرته معَهم ، ولم نعرف من سيرته مع أمه شيئًا ، ولكنّ رثاءَه لها يدُلُّ على برّه بها . على أنه قد اتخذ الدُّنيا مرةً أمًّا ، ومرة زوجًا ، فكان لها فى كلتا الحالين عَقوقًا مُبغِضًا . وما اللزومياتُ إلاّ مثالُ سخطهِ على هذه الأمِّ التعسةِ ، والزوجِ البائسة .

لا نعرف أن أبا العلاء جالسَ الناسَ على مائدة ، ولا نعرفُ أنهم رأوه يأكلُ . إنما كان إذا أرادَ الطعامَ يأوى إلى نفق له ، فيأكل فيهِ ، وكان يقول : العمَى عورةٌ ، والواجبُ استتارهُ . ولا شكَّ فى أنه كان يقضى نهارَه فى القراءةِ والدرسِ ، وليلَه فى التفكير والبحثِ ، ثم فى الراحة والنومِ ، أما طعامُه فكان العدسَ والتينَ وقد نصَّ لنا على ذلك فقال :

يُقنعنى بلسَن يُمـارَس لى فإن أتتنى حـلاوةٌ فيلس

(البلسن : العدس — البلس : التين) .

وكان لباسُه غليظ الثيابِ من القطنِ ، وفراشُه اللبدَ فى الشتاء ، وحصرَ البردىِّ فى الصيفِ ، وكان شديدًا على نفسِه يكلِّفُها من الآلامِ مالا تطيقُ ، فربَّما اغتسل بالماء البارد فى الشتاء وقال :

أجاهِدُ بالظهارة حـينَ أشتُو وذاكَ جِهـادُ مِثلى والرِّباطُ
مَضَى كانونُ ما استعملتُ فيه حَميمَ المـاء فاقدُمْ يا شـباطُ
تُشابهُ أنفسَ الحشراتِ نَفْسِى يكونُ لهنَّ بالصـيف ارتباطُ
لقد رَقدَ المعـاشرُ فى ثراهُم فما هبَّ الجعـادُ ولا السباطُ

أخلاقه

لعل من الإطالة بعد هذا التفصيل أن نكتُبَ عن أخلاق أبي العلاء ؛ فإن ما قدَّمنا من حياته يدُلُّ على أخلاقه واضحةً ، ويرسمُ خلالهُ جليةً ، ولكنَّا نأتي على موجز من القوْل فيها ، استيفاءً لبرنامج البحث واستكمالاً لنتيجته : فأولُ ما يظهرُ من الخصائص الخلقيَّة لأبي العلاء زهدُه وإعراضُه عمَّا في هذه الحياة من اللذات ، ولكَ في سيرته بالمعرَّة تسعًا وأربعينَ سنة أصدقُ دليل على أنَّ هذا الخلق قد كان من الصُّوَر النفسيَّة اللازمة له . وكذلك العفةُ والقناعةُ وعزةُ النفس . وحسبُك أنه قضى حياتَه أو شطرًا عظيمًا منها مُقِلاًّ من المال مكثرًا من الأدب والعلم ، فلم يتكسَّبْ بالشعر ، ولم يكلِّفْ نفسه مذلةَ السؤال . وما اضطرابهُ بين العراق والشام ، واحتجابُه في منزله إلى أن ماتَ إلا أثرٌ من آثار هذه العزة التي أوجدتها الوراثةُ ، وقوّاها الدرْسُ والرياضَةُ . ومن أظهر أخلاقه ضبط النفس وقهر الشهوات ؛ فإن رجلاً ينيف على الثمانينَ من غير أن يتزوّج ، ومن غير أن يرغبَ في النسل الذي هو أشدُّ الملذّات ، استئثاراً بالنفس واستحواذًا على القلب — مع شدّة حاجته إلى ولد صالح يُعينُه على أثقال الحياة أو يسليه عن همُومها — لمالكٌ نفسَه ، ومسيطرٌ على شهوته ، وباسطٌ سلطانَ عقلِه على ما له من حسٍّ وشعور .

كان أبو العلاء رقيقَ القلب ، شديدَ الرحمة ، كثير العطف على الضعيف ، وحسبُك أنه أمَّنَ الحيوانَ من تعدّيه على نفسه ، أو ولده أو ثمراته . ولو أنك قرأت ما في اللزوميات من محاورته للديك والحمامة ، ورثائه للشاة والنحل ، وبكائه على الناقة والفصيل ، ودفاعه عن النحلة والجنى ، لقدَّرت ما كان له من رقة القلب أحسنَ تقدير .

لقد مرضَ أبو العلاء فوصفوا له الدجاجَ فامتنعَ وألحوا عليه حتى أظهرَ الرّضا

فلما قدم إليه لمسَهُ بيده فجزع ،وقال: استضعفوك فوصفوك ، هلاّ وصفوا شبلَ الأسد ! ثم أبى أن يطعمَه .

إنك لنجدُ فى اللزومياّت سخطًا على الناس غيرَ قليل ولكنهُ سخطٌ مصدرهُ الرحمةُ لهم والحدبُ عليهم . فما كان أبو العلاء فى تقريعه إياهم إلا مؤنبًا لهم بالنصيحة ، كما سنبين ذلك فى المقالة الخامسة .

كان أبو العلاء كريمًا سخيًا طيبَ النفس ، يبذُل المال إذا ملكه ، وليس ينتظر منهُ غيرُ ذلك ، بعدَ هذا الزُّهد الذى التزمهُ . فأمّا وفاؤه لأصدقائه وحفظهُ لوادهم فحدّثْ عنه ولا تخش بأسًا . وحسْبك إن كُلفت الدليل عليه أن تنظرَ فى سقط الزند ، وفى الرسائل ، إلى تلك القصائد والكتب التى بعثَ بها إلى أهل بغداد، بعد رجُوعه عنهم ،وإلى أهل الشام بعد فراقه إياهم ، لتعرفَ: أىَّ قلب وفىّ ، وأىَّ فؤاد محتفظ بالوداد .

والحياء فطرةٌ فطِر عليها أبو العلاء فكم ألّف من كتُب ، وكم كتب من رسائلَ لأن الناس طلبوا إليه ذلك فلم يستطع لهم ردًّا . والكذبُ عدوُّه وخصمهُ ، فما نعرِفُ أنَّ مؤرخًا استطاعَ أن يتمسك عليه بكذبة ، على كثرة أعدائه ومخالفيه .

كان أبو العلاء شديدَ الحذرِ من الناس ، سيئَ الظّنِ بهم ، وقد ضربنا لذلك الأمثالَ ، وقدّمنا له الأشباه والنظائر ، وعرفنا أن حياتهُ تُنتجُ له ذلك إنتاجًا منطقيًّا لأنه لم يلقَ من الناس أو اعتقدَ أنه لم يلقَ منهم ومن الدهر إلا شرًّا . لذلك كان يضطرُّ إلى المصانعة أحيانًا ويلجأ إلى إخفاء آرائه تُقيةَ وضنًّا بنفسه ، حيث لا يفيد بذلُها . فلنحتفظ بهذا الخُلق ، فإنه سينفعنا عندَ البحث عن فلسفته نفعًا عظيمًا .

وعلى الجملة ، كان أبو العلاء أديبًا، ولكنّه يمقتُ أخلاقَ الأدباء ويذمُّها ، ويطهرُ نفسهُ منها ؛ فلا يفسُق ، ولا يدعُو إلى فسق ، ويقولُ :

وما أدَبُ الأقوامَ فى كل بلدة إلى الحين إلا معشرٌ أدبـاء

ويقول أيضًا :

فرقًا شعرت بأنها لا تقتني خيرًا وأنّ شرارها شعراؤها

وكان عالمًا، ولكنه يرفض خصال العلماء من حبّ الملوك والأمراء والتزلّف إليهم ويقول :

توحد فإن الله ربّك واحدٌ ولا ترغبَن في عشرة الرؤساء

وكان فقيهًا قارئًا ، ومتكلمًا مناظرًا ، ولكنّه يعرض عن أخلاق الفقهاء والقرّاء وخلال المتكلمين والمناظرين . ويقول :

ورأيتُ دنيانا تُشابهُ طامثاً ما تستقيمُ لناكح أقراؤها
فتفقهتْ لتنالها فُقهاؤها وتقرّأتْ لتنالها قراؤها

ويقول :

لولا التنافسُ في الدُّنيا لما كتبت كتب التناظرِ لا المُعْنى ولا العمد

وكان يتزهّدُ تزهُّدَ المتصوّفة ، ولكنّه ينعى عليهم إظهارَ القناعة وإخفاء الجشع . ويقول :

جند لإبليسَ في بدليس آونةً وتارةً يحلبُون العيشَ في حلبا

ربّما كان في أخلاق أبي العلاء عيوبٌ . ولكن ما وصل إلينا من شعره ونثره وتاريخه ، لا يمثّل لنا إلا خيرًا ، ولسْنا نتكلّف استنباطَ هذه الفضائل ونسبتَها إليه ، كما يفعلُ الذين يتعصبون لمن يُترجمُون من الأدباء والعلماء ، وإنما نأتي بما وجدْنا في آثار الرَّجل ، ونعتقدُ أنّا لو حاولنا أن نستنبطَ من تراثه خلقًا مذمومًا لكنّا متكلفين .

ملكاته

ليسَ بنا حاجةٌ إلى أن نثبتَ أن أبا العلاء كان فطنًا ذكيًّا ، فليسَ ما قدّمنا من أول هذه المقالة إلاّ برهانًا على ذلك ، ولقد اشتهرَ الرجلُ بين أصدقائه وأعدائه بقوّة الذاكرة ، وسرعة الحفظ حتى رَوَوْا في ذلك الأعاجيبَ التي

لا شكَّ فى أن المبالغةَ فيها قد عملت عملاً كثيرًا . فزعمُوا أنهُ حفظ مناجاةً فارسيَّةً سمعَ لفظها ولم يفهم معناها ، وزعمُوا أنه حفظ حسابًا طويلاً كان بينَ تاجرين ، فلما فقدَ أحدُهما وثيقته أملاها عليه أبو العلاء بعد زمن طويل ؛ وزعموا أن رجلاً من أهلِ اليمنِ وقع له كتابٌ فى اللغةِ قد ضاع أولهُ ، فعرضَه على طائفة كثيرة من أهل العلم ، فكلهم لم ينفعه ولم يدُلّه على اسم الكتاب ، فلما عرَضَه على أبى العلاء أنبأه باسمه واسم صاحبه ، وأملى عليه ما ضاعَ منهُ . ولهم من أمثالِ هذه الرواياتِ شيءٌ كثيرٌ . والأمرُ الذى لا ريبَ فيه ، أنَّ الرجلَ كان نادرَ الذاكرةِ ، يحفظُ ما يسمعُ ، إن لم يحل بينه وبين ذلكَ حائلٌ من غموض أو طول شديد . وأنباءُ الحفَّاظِ من العربِ والمسلمينَ ، ومن عميانهم خاصة ، متظاهرةٌ لاحاجةَ إلى روايتها ، وإنما أبو العلاء رجلٌ من هؤلاء الناسِ الكثيرين الذين اشتدَّت فيهم ملكةُ الحِفظِ والاستظهارِ .

كانَت لأبى العلاء ملكةُ الشعرِ ، والكتابةِ ، وتكلفِ البديعِ ، وذلك ما نبحثُ عنهُ فى المقالةِ الثالثةِ .

شيخوخته

هرمَ أبو العلاء وأصابته الشيخوخةُ ولكنَّا لا نعرف أنها أضعفَت ملكةً من ملكاته العقليَّةِ والخلقيةِ . وإنما قضى الرجلُ حياتهُ ثابتَ النفس ، راجحَ الحلم ، مصيبَ الفكرِ ، قويَّ العقل ، صادقَ الذوْقِ ، معتدلَ المزاجِ إلى أن أصابهُ المرضُ الذى ماتَ فيه .

على أن أبا العلاء قد وصفَ شيخوختَه ، فى رسالة كتبَها إلى أبى الحسن محمد بن سنان ، وقد أنبأه برغبة السلطانِ إليه فى اختصارِ كليلةَ ودمنةَ . فقال بعدَ كلام كثير : « وأحسبهُ أدامَ الله قدرتهُ ، يحسبُنى على ما يعهدُ من القوة والصبر ، واست كذلكَ . الآن علَت السنُّ ، وضعفَ الجسمُ ، وتقاربَ الخطوُ ، وساءَ الخلقُ ، وعطِّلت رحى لم تكن تجعجع ولكن تهمِس ، كنتُ أقصرُ طحنها على

نفسى ، وأتقوَّى به دون غيرى . ولم يكن لها ضمانٌ ، ولكن فجع بها الزمانُ ، ولم يبقَ إلاّ أن يخلوَ مكانُها العامر ، فيصبح كأنه المحلُّ الدامرُ ، فأما المنفعة بها فقد انقضَت وانقرضَت ، وإن تشبه بها فى الظعن أخواتها . صار لفظى من أجل ذلكَ مشينًا ، وجعلت سينَ الكلمةِ شينًا ، فلم يفهم منى سامعٌ ما أقولُ ، فإذا قلت العسَل : مشىَ الذئب ، ظن أنى أقولُ العشل بالشِّين المعجمةِ ، ولا أعلمُ أن فى كلامِهم هذه الكلمةَ ، وإنما هذه الرَّحى وأترابُها فى التتابع إلى الرحلة ، كما أنشد أبو زيد سعيد بن أوس :

يا ربَّة العـير ردِّيه لوجهتـه لا تظعنى فتهيجى الحىَّ للظعنِ

فإن وقعَ يومًا من الدهر إليه شىءٌ مما أمليه ، فوجد فيه السيناتِ شينات ، فليعلمْ أن ذلك كما ذكرت ، وأنَّ الذى كتبَ سمع ولم يفهم » .

فترى أن كلامَ الرجلِ فى شيخوخته لم يضعف ولم يختل ولم يزد إلاّ متانةً ورصانة وثباتًا .

قال القفطى : وقد تنبأ ابنُ بطلانَ الطبيب ، بوفاة أبى العلاء قبل موته بقليل ، وكان ابنُ بطلان يألف أبا العلاء ، وكان بالمعرَّة إذ ذاكَ ، فحدثه بعضُ الطلبة أن أبا العلا قد أملى عليهم شيئًا فغلط فيه ، فتنبأ ابن بطلانَ بأنَّ ذُبالته قاربَت الذُّبول ، لأنَّ من كان كأبى العلاء ، فى قوَّة العقل ، وذكاء القلب ، وحصافة الرأى ، لا يدركه الخطأ فيما يُملِى ، إلاّ إذا اضطربَت قواه ، وفسَد مزاجُه .

وفاته

فى اليوم العاشر من شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعينَ وأربعمائة للهجرة ، سنة ثمان وخمسين وألف للمسيح ، اعتلَّ أبو العلاء ، فلبث ثلاثة أيام مريضًا ، ثم مات يومَ الجمعة الثالث عشرَ من هذا الشهر ، فخمدَت تلكَ القوةُ التى طالما صدر عنها من الآثار النافعة ما أرضَى قومًا وأسخطَ آخرين .

خمدَت تلكَ القوةُ فظفِر أبو العلاء بما كان يرجوهُ ويحرص عليه من فراق الحياة ، ورجوع جسمه إلى عنصره الذى منهُ ائتلفَ وتركبَ .

وقد روَى ياقوت عن غرس النعمة : أنه لما كانت المناظرة بينَ أبى العلاء وبين داعى الدُّعاة بمصر ، فى ذبح الحيوان ، أمر داعى الدُّعاة بأن يؤتَى بأبى العلاء إلى حلبَ ، ويخيَّر بين حياة يزينُها الإسلام الصحيح وتذهب بأثقالها الثروةُ الموفورةُ ، أو قتلٍ يريحه ويريح الدينَ من شرّه ، فلما علمَ أبو العلاء ذلك شربَ السمَّ فمات . ومن الواضح أن ليس لهذه الرواية ظلٌّ من الصحة لأن موتَ أبى العلاء معروفٌ ، ولأن المناظرةَ بينه وبين داعى الدعاة قد انتهت بالصَّمْت وبالسكوت ، وهى تدلُّ على أنَّ داعى الدعاة قد كان يُجلُّ أبا العلاء ويكبرُه . لذلك أسرعَ ياقوت إلى رفض الرواية وتكذيبها . والعجب أن المستشرقَ الفرنسى سلمونَ لم يفهمْ ما كتبَ ياقوت ، فظنَّ أنه صاحبَ الرواية واجتهدَ فى الردّ عليه ، ولو أنه فطِنَ لِما كتبَ ياقوت لأراح نفسَه من عناء كثير .

وصيته

زعم المؤرخون أنَّ أبا العلاء قال لبنى عمه فى مرض موته : اكتبوا عنّى . فأخذوا الدوى والأقلامَ ، فأملَى عليهم غيرَ الصواب ، وكان القاضى أبو محمد على التنوخى حاضرًا ، فقال لهم ، أحسنَ اللهُ عزاءكم عن الشيخ فإنه ميتٌ . قالوا فمات فى غد ذلك اليوم . أما نحنُ فما نستطيع أن نجزمَ بهذا الخبر ؛ لأنا لا نعرف أبا العلاء قد كان له فى هذه الحياة غرضٌ يحبُّ أن يوصى بتحصيله والسعى إليه ، بل كان أبو العلاء يهزأ بالرجل يوصى قبل موته ، وذلك فى غير موضع من اللزوميات .

فأمَّا الحثُّ على الفضيلة والنهىُ على الرذيلة ، فقد شفى نفسَه منهما فى كتبه

المختلفة، وسواء صحَّت هذه الرواية أم لم تصح ، فلسنا نشكُّ ولا يشك المؤرخون ، فى أن الرجلَ أوصى أن يُكتبَ على قبره :

هذا جناهُ أبى علىَّ م وما جنيْتُ على أحـــد

شكله

قال الحافظُ السلفى : أخبرنى أبو محمد عبد الله بن الوليد بن غريب الإيادى أنه دخلَ مع عمه على أبى العلاء يزورُه ، فرآه قاعداً على سجادة لبد وهو شيخٌ ، قال : فدعا لى ، ومسحَ على رأسى وكنتُ صبيًّا . قال كأنى أنظر إليه الساعةَ ، وإلى عينيه : إحداهما بارزةٌ والأخرى غائرةٌ جدًّا، وهو مجدورُ الوجه ، نحيفُ الجسم .

وليس يحفظ التاريخُ الصحيحُ لنا من وصف أبى العلاء غيرَ هذا الخبر ، ولكنَّ أحاديثَ الرجل بعد موته وما كان يوصف به : من الإيمان مرةً والزندقة أخرى ، قد تركت له صورتين خياليتين ، أوحَت بهما أحلامُ الليل على رجلين مختلفين : أحدُهما القاضى أبو عمرو عثمان بن عبد الله الكرجى ، فقد روى عنه القفطىُّ ، أنه كان وهو طالبٌ يقع فى دين أبى العلاء ، فرأى فيما يرَى النائم كأنه فى مسجد ، وكأن على صُفَّة فيه رجلاً شيخًا ضريرًا بادنًا ، وإلى جانبه غلامٌ يشبه أن يكون قائده ، قال القاضى وكنتُ واقفًا تحت الصُّفة فى نفر من الناس ، وهذا الشيخُ يتكلمُ كلامًا لم أفهمه ، ثم التفتَ إلى وقال : ما حملك على الوقيعة فى دينى ؟ وما يدريك لعلَّ الله غفرَ لى ، قال فاستحييْت منه وسألتُ عنه ، فقيل هو أبو العلاء . فلما أصبحتُ أقلعت عن النَّيل منه ، واستغفرت الله لى وله . ثم مضى على ذلك دهرٌ ، وأنسيته ، ودخلت المعرَّة . فزرْتُ مسجدَها للصلاة . فإذا هو كما رأيتُ فى النوم وإذا الصفة كعهدى بها . وعليها راهب يضفر البردىَّ . فتقدمْتُ إليه وسألته عما يصنَع . فعرفت أنه يعملُ الحصرَ لهذا المسجد . وكان على ديره أن يؤدى للمسجد هذا العملَ كلما احتاجَ إليه . قال فلما

أذكرَنى ذلك ما أنسيته ، سألتُ عن قبر أبى العلاء . فزرته فإذا هو مهملٌ فى مكان أشعثَ . وقد نبتت عليه الخُبازى ثم جفت فقرأت عنده واعتذرتُ إليه ، وذلك فى أوائل القرن السابع .

الثانى غلام سمَّاه غرس النعمة أبا غالب . قال : وهو من أهل الخير والصلاح وله فقهٌ ودينٌ ، فلما ورد إلينا الخبر بموت أبى العلاء تذاكرنا ما كان له من كفر وإلحاد ، فأتينا من ذلك على شىء كثير والغلام يسمعُ ، فلما كان الغد أقبل إلينا يحدّثنا : أنه رأى فيما يرى النائم شيخًا مكفوفًا على عاتقَيه حيتان ، رأساهُما إلى فخذيْه ، فهما ترفعان رأسيهما إلى وجهه ، فتقطعان منه قطعًا تزدردَانها ، والشيخُ يصيحُ ويستغيثُ ، فسألَ عنه ، فقيل : هو أبو العلاء المعرّى الملحِد . قال غرسُ النعمة ، فعجبنا من ذلك واستطرفْناه . هاتان الصورتان الخياليتان ، ليستا فى الحقيقة إلا مثال ما تصور صاحباهما ، حين سمعا حديث أبى العلاء ، فهما لا تمثلان الرجل ، وإنما تمثلان رأىَ الناس فيه .

احتفال الناس برثائه

اتفقَ ياقوت والقفطىُّ والذهبىُّ والصفدىُّ وابنُ خلكان ، على أن أبا العلاء ، لما ماتَ أنشدَ رثاءَه على قبره شعراء ، لا يقل عددهم عن سبعينَ شاعرًا . منهم تلميذُه أبو الحسن على بن همام الذى قال فيه من قصيدة :

إنْ كنتَ لم ترقِ الدماءَ زهادةً فلقد أرَقت اليومَ من جفنى دَمَا
سيرتَ ذكرَك فى البلاد كأنَّه مسكٌ(١) تضمخ منه سمعًا أو فمَا

---

(١) فى أكثر الكتب التى روت هذه الأبيات جاء هذا الشطر بهذه الصورة (مسك فسامعه تضمخ أو فا) إلا نسخة خطية من ابن خلكان جاء بها كما أثبتناه . وعنها أخذ طابع اللزوميات بمصر سنة ١٨٩١ م .

وفى رسائل أبى العلاء طبع بيروت ١٨٩٤ م وردت (مسك فسامعه تضمخ أو فا) .

وفى سقط الزند طبع بولاق (مسك مسامعها تضمخ أو فا) فهذا كله يدل على أن العبث قد كثُر بلفظ الشاعر ولم يبق منه إلا هذه الصورة المشوهة تمثل هذا المعنى الذى أشار إليه وهو أن ذكر أبى العلاء طيب لمن سمعه ونطق به .

وأرى الحجيجَ إذا أرادُوا ليلةً ذكراك أخرجَ فديةً من أحرَما

ومنهم أبو الفتح الحسنُ بن عبد الله بن أبى حُصينة المعرى الذى رثاه بقصيدة طويلة يقولُ فيها :

العلمُ بعد أبى العلاء مضيَّعُ والأرضُ خاليةُ الجوانب بلقعُ
أودَى وقد ملأ البلادَ غرائبًا تسرى كما تسرى النجومُ الطلعُ
ما كنتُ أعلمُ وهو يودعُ فى الثرَى أن الثرَى فيه الكواكبُ تودَعُ
جبلٌ ظننتُ وقد تزعزعَ ركنُه أنَّ الجبالَ الراسيات تزعزعُ
وعجبْتُ أن تسع المعرَّةُ قبرَه ويضيقَ بطنُ الأرض عنه الأوسعُ
لو فاضَت المهجاتُ يوم وفاته ما استكثرَتْ فيه فكيفَ الأدمعُ
تتصرمُ الدنيا وتأتى بعدَه أممٌ وأنتَ بمثله لا تسمعُ
لا تجمع المالَ العتيدَ وجُدْ به من قبل ترككَ كلَّ شىء تجمعُ
فإن استطعْتَ فسرْ بسيرة أحمد تأمن خديعة من يغر ويخدعُ
رفضَ الحياةَ ومات قبلَ مماته متطوّعًا بأبرّ ما يتطوَّعُ
عينٌ تُسَهَّدُ للعفاف وللتقَى أبدًا وقلبٌ للمهيمن يخشَعُ
شيمٌ تُجمِّلُهُ فهنَّ لجده تاجٌ ولكنْ بالثناء يرصَّعُ
جادَت ثراكَ أبا العلاء غمامةٌ كندَى يديْكَ ومزنةٌ لا تُقلعُ
ما ضيَّعَ الباكى عليكَ دموعَه إنَّ الدموعَ على سواك تضيَّعُ
قصدتْكَ طلابُ العلوم ولا أرَى للعلم بابًا بعد بابك يُقرَعُ
ماتَ النُّهى وتعطَّلتَ أسبابهُ وقضَى التأدبُ والمكارمُ أجمعُ

ولم يرِ ياقوت وأصحابهُ من رثاء الشعراء لأبى العلاء شيئًا كثيرًا ، ولو قد فعلوا لأعانتْنا هذه المراثى على فهم رأى الناس فيه ، فإنها تنمُّ من غير شكّ بما تُضمرُ قلوبُهم ، من حبّ للرجل أو بغض . فربَّ مبغض له رثاه ، وربّ محبّ له أعرضَ عن رثائه . ولا شكَّ فى أنَّ أكثرَ هؤلاء الشعراء قد كان من طلاّب أبى العلاء ، فقد حدّثنا ناصرى خسرُو ، أنه كان فى جميع أوقاته يحيط به مائتان من الطلاّب . ولا شكَّ أيضًا فى أنَّ طائفةً غيرَ قليلة ، من أهل حلبَ وحماة وتلك النواحى ، قد أقبلَتْ تشاركُ أهل المعرّة فى حزنها على

شاعرها وحكيمها . وما أسرعَ ما يتسامعُ الناسُ بموت رجل كأبي العلاء ، وما أكثرَ ما يحتشدون حولَ نعشه ويشيعونه إلى قبره ، ومنهم الباكي عليه ، والشامت فيه .

كم شامتٍ بي إن هلكْتُ وقائل لله درُّه !

والآن وقد صحبْنا أبا العلاء من مولده إلى مماته ، ثم شيعناهُ إلى قبره ، وسمعْنا الشعراءَ يرثُونه ويبكونهُ ، فقد آنَ لنا أن نثوبَ إلى أنفسنا ، ونتحدثَ عنهُ كما يتحدّثُ من يريدُ أن يعتبرَ ، عن ميّتٍ قد فارقَ الحياةَ . لا نريدُ أن نسلك طريقَ الوعظ والتذكير بالآخرة ، فإن الوعظ والذكرى ليسا من غرض هذا الكتاب . وإنما نريدُ أن ندرُس آثارَ الرجل درساً مستوفى لنعرفَ : أكانت حياتهُ خليقةَ بالخلود ؟ وإنما يكونُ ذلك بدرس أدبه وعلمه وفلسفته ، ونحنُ بادئون بدرس أدبه منذُ الآن .